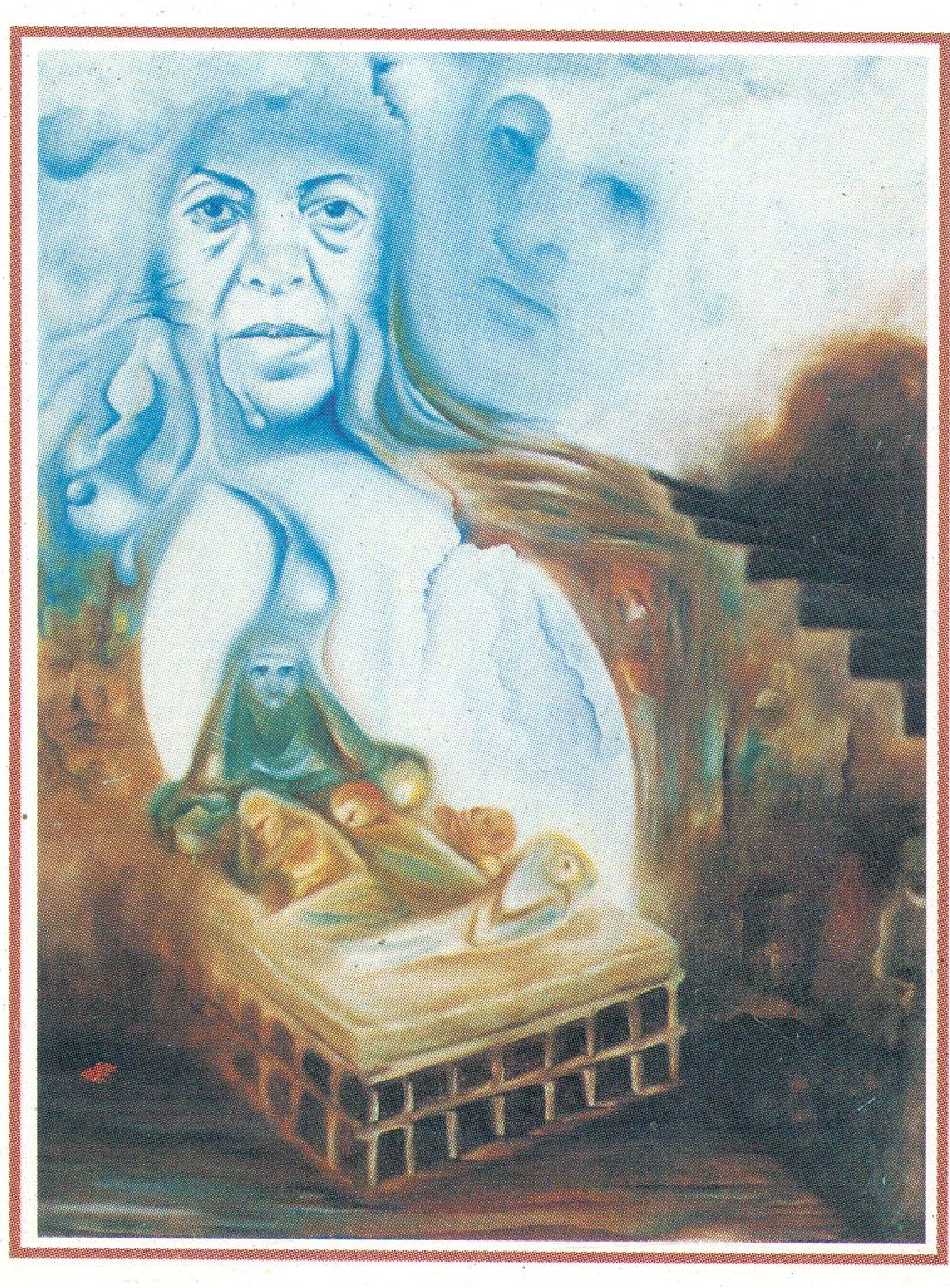
أماني فهمي

# لا أحد يحبك



قصص قصيرة






# السلسلة الأدبية



الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

**٤ ش العلمين عمارات الأوقاف**

**ميدان الكيت كات**

**تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨**

أمانى فهمى

# لا أحد يحبك

قصص قصيرة



# إهداء

في الحياة لا نتعلم إلا طبائعنا

فتظل كورديليا تصيح «لا شئ .. لا شئ يا سيدى»

ولير يعيد نفس الدور

لا يعرف أن «لا شئ» فى حالته تعنى .. «كل شئ»

فإلى الملك لير

الذى أحببته كما أحبته كورديليا

لأنه ما بين اليقظة والحلم قادنى إلى هذا الطريق

# القربان

فى حجرة قاتمة اللون ، يضيئها من حين لآخر ، إشارات ضوئية قادمة عبر النافذة كانت تترنح ، لا تجد إلا نفسها تبثه جنون الثورة الذى هز أعماقها ، صاحت متشبثة بالنافذة : لا ...

«لم أكن أرغب أن أغوص فى شرايين الآلهة ، فغوصى ثورة ، لا يمكننى هدم المعبد إلا أن قوانينه خانقة ، لا يمكننى كسر النوافذ ، إلا أنّه ينبغى أن يدخل إلىّ أحد ، آه قد جمدت الدماء فى الشرايين ، آلهة تعلن الموت ، وموت يرفض الحياة .

هكذا أنا قرباناً للإله ، طال انتظارى له محمولاً كما قالوا على أجنحة الملائكة ، ألا يمكنه الوصول بشكل أسرع لو طار هو بجناحيه ؟.

يدق الباب وتدخل امرأة عجوز ، ترقب المكان بحذر ، تتشمم رائحة الجو بحثاً عن رائحة غريبة لكائن غريب ، تتحسس كتفى الفتاة بعد أن وضعت أرضاً ما كان بيديها من طعام .

السيدة : هه .. ماذا تشعرين ؟

الفتاة : أفضل .

السيدة : الحياة هنا طيبة .. ستعجبك .

الفتاة : لا أحد من سنى .

السيدة : يا صغيرة .. من يختارها الإله لا تعبأ بالصغار .

الفتاة : سيدتى .. أنت وزوجك لا تجلسان معى .

السيدة : بل نفعل .. حين تستغرقين فى النوم نتبادل حراستك .

الفتاة : حراستى ؟! هل تخشيان هربى ؟

السيدة ضاحكة : هاها .. هربك ؟. لا ، لا ، لكنه أمر اعتدناه ، ربما على سبيل التسلية ، هيا إلى الطعام .

تعرى الفتاة الطعام ثم تبتعد عنه بامتعاض موجهة النظر نحو النافذة :

: ياه ، ربما كنت الآن ألعب ، ألهو ، أقطف الزهور ، آه ، يا لبساتين الريحان التى وعدونى إياها حين أكبر ، وزهور اللوتس الذهبية التى أعلقها أقراطاً لأذنى ، والعطر الفاخر الذى كان يخص أختى ويحرم على الاقتراب منه أو شمه . وعدونى حين أكبر ، كنت مطيعة ، جميلة طيبة ، وانتظرت هدايا عيدى السابع عشر ، العطر واللوتس والرياحين .

نعم ، الرياحين ، كنا جميعاً نستبق إلى بستان الريحان كلنا فى عيدنا السابع عشر ، أحلاهن أنا ، أطيبهن أنا ، وأيضاً أحسنهن خلقاً أنا ، يحسدننى .

والداىَ يجريان فى الناحية الأخرى يلوحان لى ، وينشران زهور

اللوتس الطبيعية ، وأنا فى لهفتى لتلك الذهبية ، قالا لى أنهما أعطيا الكاهن ثمنها ، ليست كل بنات القرية يمكنهن ارتدائها حين يحل العيد السابع عشر ، منهن من ترتدى الفضة أو الذهب أو خيوط الحرير ، أو علهاً تكتفى بثقب الأذن ، أما هما فميسورا الحال ، ودفعا لى كى أرتدى أغلى الأشياء فى عيد الآلهة وعيد الميلاد .

ياه ! كم كان شوقى لبساتين الرياحين ، للتسويج ، للهو مع الفتيات ، قالوا لنا أنه بعد كل ذا سنجتاز البحيرة ، ويسمح لنا للمرة الأخيرة أن نستحم عرايا فتيات وفتيانا ، دائماً وهم يذكرون هذا أشعر أن الأمر يتجاوز أمر الاستحمام ، نغمة خبث وابتسامة ماكرة ألحظها دائماً ، وسيسمح لنا للمرة الأخيرة أن نلهو معاً ، كنت أتمنى أن أعرف لم تلك الابتسامة ؟ لم تلك النظرة ؟ ..

أظن الأمر لم يرد به الاستحمام فنحن نذهب إلى ذاك العيد أيضاً بعد أن نستحم ، وعيدنا فى الربيع فلا يصيب جسدنا العرق أو تلحق بنا الأتربة من ذاك الطريق ، أية أتربة ؟ وأى عرق ؟ كم كنت بلهاء فلطالما لعبنا ، عفواً أقصد لعبوا هم - بالأتربة والطين وحبات المطر .. أما أنا فدائماً بالمنزل أو حديقته ، لم يكن يُسمح لتلك الأشياء المعلقة بالهواء بالاقتراب منى ، كنت الصغيرة المدللة ، وقرة العين لهما ولإخوتى ، دائمة اللعب بزهورى الطبيعية ، فى حالة شبق دائم لتلك التى بآذان إخوتى ، كان يسمح لى باللهو بأحذيتهم بسراويلهم ، بكل متعلقاتهم ، عدا تلك الأقراط ، نعم عدا تلك الأقراط التى تمنيتها ومازلت الآن فى حبسى بالمعبد انتظرها .. قبل سبعة عشر ربيعاً ، والآن زادت شهرين وثلاثة ليال ، ولم يأت رب المعبد .

كنت أركض مثلهن سعيدة فرحة ، حين اصطدمت قدماى ببوابة البستان فسقطت ، التقطونى .

- أوه ، ها هى ، أنها هى .

صيحات عديدة فرحة ، تفحصونى ، كنت كاللعبة الصغيرة ، بعضهم جرؤ ومد يده إلى ، نعم فى فتحة الصدر ، كان الزحام شديداً ، كنت كالكنز الذهبى الذى يود الجميع أن يتفاخروا بلمسه ، هجم الكهان ، وخلصونى من أيديهم : "مقدسة يا أوغاد .. يا وحوش" .. "إنها ليست أعياد الخمر والسكر بل أعياد الربيع المقدسة" ، انقلبت ملامح الفزع التى اعترتنى عقب السقوط إلى فرح بوجل .

- سيدى .. لقد دفع لى والداى ثمن الأقراط الذهبية .

يقهقه الكهان فاصرخ : سيدى من هنا الطريق ، لقد سقطت سهواً .

يتبادلون كلمات بلغة لا أفهمها ، يدى الصغيرة مسحوبة بشدة ، فى اتجاه مغاير .

- سيدى : اليوم عيدى السابع عشر ، لقد انتظرته كثيراً ، لا ، أنا أحب الأقراط الذهبية .

الرد كان كلمة واحدة : لك ستكون مرصعة .

لا أفهم ،لكنى لا أحلم إلا بأقراط تماثل أقراط إخوتى ، توجهت إلى الخلف برأسى ، شبح أبى وأمى مازالا يلوحان بعيدان ، لكننى شعرت أن الدموع تتساقط ، وأنى أنزع منهما ولن أعود أبداً لم لا يعترضان؟.

لم يدفعان ثمن الأقراط للكاهن ؟ .. أنا لا أريدها مرصعة ، أنا فقط أريدها ذهبية .

... «أريد بستان الريحان يا سيدى» .

... «أريد الاستحمام عارية بالبحيرة يا سيدى» .

لا أحـد يستـمع ، وأنا لا أفـهم ، عاودت : إذن ، دعنى أعـود لأمى ، لحديقة منزلنا سـأكتفى بالعبث بأحذية وسراويل إخـوتى ، أوه أفتقد زهور اللوتس الطبيعى .. أذناى تؤلمانى .. لا يمكن ثقبهما الآن .

... لكن الثقب كان مؤلماً ، آآآه ه .

تركنى الكاهنان بعد أن ثقبا أذنى ، لم أعد أفـهم .. لقد سقطت سهواً ، أنا لـم أعتد الركض بسرعة كباقى الصبية والفتيات ، لقد سقطت سهواً ، لم يخـبرنى أحـد أن هذا خطأ أعاقب عليـه بعدم اتمام عـيدى الربيـعى ، مازلت لا أعرف ..

يُفتح الباب ، وتدخل العجوز لتسألها :

- هل أنهيت الطعام ؟

الفتاة : لا رغبة لى .

العجوز : ما شئت .

حادثت نفسها بصوت خفيض تعمدت وصوله للعجوز :

- لم يعد هناك من يرجونى أن آكل كما كانا يفعلان معى .

العجوز : لسنا هما .

الفتاة : نعم أعرف .

العجـوز : ربما كان هذا واجبهـما ، إلا أن واجبنا هنا هو مجـرد تقديم الطعام .

رفعت الفتاة رأسها إليها : وحمله ثانية .

أدارت العجوز ظهرها : هل ترغبين فى شئ معين ؟

جذبتها مواجهة لها : لم تركانى ؟

ردت العجوز بلا مبالاة : من هما ؟

أجابت الفتاة وقد استفزتها لا مبالاة العجوز : من كانا يرعيانى ؟ يطمعانى ويسقياني ؟ والداىّ ؟ لقد دفعا للكهنة لأضع الأقراط الذهبية بأذنى .

العجوز لا مبالية : لم يحن الوقت بعد .

الفتاة بتوسل : هل كل صاحباتى مثلى ؟ أريد رؤيتهن .

العجوز : هل تطلبين شيئاً آخر ؟

همست الفتاة وقد فقدت الأمل فيها : لا .. «تراجعت» .. بلى .. بلى أريد أن أشرب .

أشارت العجوز لبضعة قوارير : الماء إلى جوارك

الفتاة : كما لو كانت تحلم : ماء البحيرة أشد عذوبة .

العجوز : ليس فى هذا الموعد من العام .

الفتاة مستمرة فى الحلم : أنا أحبه فى أى موعد .

العجوز : ..

الفتاة : «وقد عادت لواقعها» : متى سيأتى ؟

العجوز : من هو ؟

الفتاة : موكب الملائكة ، أنا لم أعد شديدة الرغبة فى الأقراط الذهبية ، إلا أنى أريد أى شئ ، حدثينى ، لم تصمتين ؟

اتجهت العجوز نحو الطعام لتحمله وكادت تخرج ، فجذبتها الفتاة للداخل .

الفتاة : لا ، لم دائماً تهربين ؟ أمُحرم عليك الحديث معى ؟

العجوز : عم ؟

الفتاة : عن أى شئ ؟ حدثينى عن أى شئ ، بساتين الرياحين .

لم تجب العجوز فرجتها : كيف ؟ كيف هى أرجوك ؟

التزمت العجوز الصمت ، ووضعت أوانى الطعام أرضاً وذهبت إلى النافذة الحديدية فأزالت عنها الستائر وهمست بارتياح :

العجوز : مازال الربيع .

الفتاة : أخشى أن يزول ربيعى .

العجوز مازالت تنظر من النافذة : الملائكة لا تتأخر عنه أبداً .

الفتاة : والآلهة كذلك .

العجوز : بلى .

الفتاة : إإله واحد ؟ أم عديد من يحضرون ؟

العجوز : لا أعرف .

الفتاة : لم يخبرنى أحد عن مثل هذا لم تركونى ؟

خرجت العجوز عن تحفظها ناظرة إليها بإعجاب وشغف :

: كنت أجملهن !

الفتاة «مؤكدة» : نعم لقد اهتما دائماً أن أكون كذلك .

العجوز : لتبارك الآلهة لهما عملهما .

الفتاة : ألأنا هنا من أجل هذا ؟

العجوز : نعم كنت أجملهن ، وأطيبهن رائحة وخلقاً .

الفتاة : عفواً أقصد ألأنا هنا لتبارك الآلهة عملهما ؟

العجوز : هذا فضل .

قاطعتها : لكن ماذا سيحدث لى أنا ؟

عادت العجوز للا مبالاتها وذهبت لحمل الآنية فهرعت إليها الفتاة تحملق بها راجية إياها الحديث :

: ماذا عنى ؟ هل سيباركوننى أيضاً .

تركتها العجوز تكرر السؤال لتعود تترنح بين جدران الحجرة تحادث نفسها .

: متى كان آخر أعياد الربيع ؟ لم يقصصن علينا إلا الحكايات الحلوة ، لم يحك لى أحد عن معبد وملاك وإله يُحمل ، لم أر أى منهن بقرط مرصع ، كل أقراط القرية ذهبية وفضية أو خيوط حريرية ، أو ثقوب بلا شئ، لم يحك لى أحد عن سيدة عجوز وزوجها لا يحادثانى ، لا

يكلماني، لا أعرف كيف هما ؟ ولمَ لم يستنشقا أبداً بساتين الرياحين ؟

مدت اليد نحو أحد القوارير واحتضنتها ، وعاودت الحوار إليها بينما ماء القارورة ينسكب على جسدها .كان آخر أعياد الربيع منذ عشرة أعوام، نعم نفس فارق العمر بيني وبين أول من يكبرني من الفتيات ، لم نُنجب كل عشرة أعوام ؟ ولم تظل أعوام عشرة مفقودة وعقيمة ؟ لا يهم، فقط أود أن أتذكر حين كنت في السابعة ، كيف كن وهن عائدات من عيدهن السابع عشر ؟ نعم كن جميلات وبراقات ، أذكرهن كانت بطونهن تنتفخ قليلاً ربما من أكل يرقات الفراشات ، ذاك الطعام الذي لا يوجد إلا بالبساتين كنت وعدت جارتي أن أسرق لها اليرقات فقد انتقدت متعتها ، كن يعدن ببطون منتفخة وبعد قليل تبني لهن المنازل ملونة جميلة ، تفقد ألوانها بمرور السنوات العشر .

حين كان عيدي كان منزل جارتنا قد أصبح قبيح الوجه ، مع أنه كان أزهى المنازل لوناً حين كنت في السابعة علها ظننت أن اليرقات الملونة ستعيد الألوان الزاهية لمنزلها الباهت . «تلقي بالقارورة بعيداً ، فقد اكتشفت نفاذ ما بها من ماء» أذكر بين ضفاف الألوان تلك الموسيقى الصاخبة ، والراقصات والحفلات الدينية ، وهو وهي يمتطيان جوادين ملكيين ، ورفيقتي تلكزني :

: لم تعد ابنتهما .

تعجبت : لم ؟

قالت : لا أعرف ، لا أحد يعرف ، أولاً أحد يقول .

صبى صغير يعلو صوته : ماتت شهيدة .

أضاف آخر : سقطت بالبوابة فحملوها بعيداً .

همس الطفل الأول : قربان للإله .

تساءلت : ما معنى قربان ؟

قال لى أبى : تقرب من شئ ما أو من شخص ما «تكسر باقى القوارير القريبة منها» .

سألته : وأين ذهبت الصغيرة ؟

قال : لا عليك ، إنها بمكان ما من بساتين الرياحين

صحت : ولمَ لم تعد مثل الأخريات ؟ لمَ لم يبن لها منزلاً ملوناً ، وتنتفخ بطنها من أكل اليرقات الملونة ؟

كان يضحك ، يضحك كثيراً ، وتنتابنى حمى الضحك معه ، كانت ضحكاتنا تنسينى منظر الجوادين المطهمين ، والوالدان يعلوانهما ، شعور بالفرح العارم ، ومسحة حزن عميقة ، كنت أفهم ذاك الشعور جيداً رغم صغر سنى ، كان يعلو وجهيهما، سعيدين بمصيرهما ، ويتساءلان بشجن:

لم اختارهما هذا المصير ؟ أم تراهما هما من اختاراه ؟

(تدخل السيدة وزوجها دون أن تشعر الفتاة ويجمعان القوارير المهشمة بينما هى تستطرد الذكريات) ، أذكر فى الليالى السوداء حين كنت أعتلى سطح منزلنا أنى كنت أراهما ينبشان أرض القرية ، ويستخرجان عظاماً آدمية لكائن صغير ، ويبكيان بلا نحيب ، بل أن صوتاً خافتاً لضحكات

قلبية كان يصدر عنهما ، وأعود أتساءل وأنا أراهما فى الأعياد الملكية والمواكب الدينية يعتليان متن الجوادين . أهما سعيدان ؟ أهما تعيسان ؟ عم كانا يبحثان ؟

وأغزو أرض القرية مساءً ، أنبش فيها ، وأبحث عن شئ مفقود لا اعرفه ، لكنى الآن أعرف أنى كنت أبحث عن مصيرى . عن أقدارى ، أبحث عم أنا فيه الآن

«يخرج العجوزان بعد أن أخرجا من عباءيتيهما قوارير سليمة وضعاها أرضاً وحملا معهما المهشمة»

اما هى فأخرجها من أفكارها صوت موسيقى وأجراس صاخبة ، وقرع طبول هائل أماد بها الأرض فترنحت : كلا

حاولت التماسك : إنه هو موكب الملائكة الآلهة ستصل عظامى ستملأ القبور ، وينتشى والداىّ بموتى ، موكب الملائكة لهم وموكب الأبالسة لى .

تركض فى كل اتجاهات الحجرة ، مترنحة خائفة ثم تتجه للنافذة ، تنظر للأضواء القادمة من الخارج ، وتبكى حيث سقطت ممسكة بثقبى أذنيها أمام القوارير

أقراط ذهبية مرصعة ، وعظام متناثرة بين طرقات القرية نعم ، أما البحيرة ، عذب البحيرة والمنازل الملونة ، بساتين الرياحين ، الآن أعرف لا شئ من كل ذا ، الآن أعرف ، لا شئ من كل ذا

زاد الصخب بالخارج وعلا صوت العجوزين وأسرعت العجوز راكضة إلى الحجرة لتنظر من النافذة فزعة : كلا كلا

هرعت لها الفتاة : ماذا هناك يا خالة .

نظرت لها بفزع : إنها المرة الأولى أخشى أن تكون الأخيرة لنا .

اتجهت الأضواء بعيداً ، وخفتت أضواء الحجرة تدريجياً .

الفتاة : ماذا حدث ؟

أشارت العجوز للنافذة : موكب الآلهة .

الفتاة : ماذا حدث ؟

أشارت العجوز للنافذة : موكب الآلهة .

الفتاة : ماذا حدث له ؟

العجوز : مر من هنا .

قالت بوجل : سيأخذونني .

العجوز : لم يتوقفوا ، رحلوا .

الفتاة وقد التقطت أنفاسها: ربما سيعودون !

العجوز : إنها المرة الأولى .

تحفزت الفتاة : علهم يريدون لي الحياة .

أجابتها العجوز بغضب : وهل كنت ذاهبة للموت ؟ لا موت حيث تحيا الآلهة .

تداركت ، وقد حملت إحدى القوارير كالطفل بين يديها : عفواً لا أقصد ، لكنني كنت أحب الأقراط الذهبية ، والاستحمام بالبحيرة ،

والعودة منتفخة البطن ، وسكنى المنازل الملونة ، وأكل اليرقات الملونة ، وحملها للجارة المحرومة ، هل ذقتِها فى عيدك السابع عشر ؟

ضحكت العجوز ساخرة بينما الفتاة تشرب من القارورة : السابع عشر أظلمت الحجرة تماماً ، فتحسست العجوز طريقها نحو النافذة وهمهمت : إنه يرحل .

الفتاة : الآلهة ؟

العجوز : لا .

الفتاة : الموكب ؟

العجوز : بل الربيع .

تركت الفتاة القارورة وأسرعت تحاول إشعال المصباح الذى بدأ يبعث ضوءه رويداً رويداً : ولم تخافين ؟ كنت أخشى ألا أرى الشتاء ثانية .

العجوز : كنت ستذهبين إلى حيث الربيع الدائم ، الآلهة لا تحل إلا ببلاد يقطنها الربيع .

حملقت بالمصباح : لكنها كادت تنتزع الربيع من قلبى .

حامت العجوز فى غضب حول الفتاة المتشبثة بالمصباح .

: كيف تجرؤين على هذا ؟

نهضت لها : على ماذا يا سيدتى ؟

أشاحت عنها : لقد غضبت الآلهة ، علَّ الربيع لا يعود إلينا ثانية .

الفتاة : لا ، لا ، لقد رأت فزعى فخشيت علىَّ .

العجوز : فزعك يا بلهاء ، تسكنين بطن الآلهة ،وتذهبين حيث تذهب وتفزعين .

الفتاة : لا ، بل أسكن بطن الأرض ، انحنت أرضاً تعبث بكسرات متروكة من قارورة مهشمة - كانا يستخرجان عظامها أمامي .

حملت العجوز نفسها ببطء لتخرج يملؤها اليأس والحيرة ، بينما بدأت أصوات الرعد والبرق تصل إليهما من الخارج وهطلت الأمطار بشدة حتى تغلغلت بعض المياه عبر النافذة إلى الحجرة ، واتجهت العجوز إلى الباب مشيرة إليها بالخروج : ماذا تنتظرين ؟

الفتاة : لا أعرف .

العجوز : حين يرحل الربيع لابد من رحيلك معه .

الفتاة : لكن .

العجوز : لن يأتي ربيع آخر إلا لو رحلت .

الفتاة : ولو بقيت .

العجوز : ستظل الآلهة ضالة تبحث عن قربان ، وعن أرض بها ربيع.

الفتاة : ولن تأتي إلى هنا ؟

العجوز : كلا .

الفتاة : ولن تلتهم أحلام السابع عشر ؟

تنهدت العجوز : السابع عشر ! .. كلا ..

الفتاة : فلم أرحل ؟

اتجهت لها العجوز : ألم يغلب شوقك لماء البحيرة ، ورياحين البساتين على شوقك لرحيق الآلهة ؟

ضمت نفسها إليها: أأذهب وحيدة أى قربان أقربان أليم ؟ .. وكيف أذهب فى موسم لا توجد به فراشات ؟. كن جميلات وهن منتفخات البطن ، كيف رحلت الآلهة ؟ ولم فعلت ؟ ولمن تدّعنى هنا ؟ لك ولزوجك العجوز .

العجوز : بل للبحيرة ، لأحلامك الصغيرة .

الفتاة : لم تكن أحلامى صغيرة ، كنت أحلم بالطبيعة ، بصنع الآلهة ، لم يحدثنا أحد عن القرابين ، ولم يعلنوها ، حتى الوالدان على الجوادين المطهمين كانا اكتشافى ، مشاعرهما كانت أحاسيسى ، لكنى لم أدركها إلا هنا وأنا أنتظر ، ربما لم يعرف عنها من سبقنى شيئاً لذا فزعت ، وعرفت أن نبشى عن عظام الصغيرة يعلن لى أن لا بساتين ولا رياحين ، فالزرع لا ينبت تحت الأرض .

العجوز : .....

الفتاة : هل ستعودين للصمت والخرس ، ألن تجيبنى ؟

العجوز : بل .. قد ينمو ، أما الآن فعليك بالرحيل .

الفتاة : لم ؟ ولأين ؟

العجوز : سترحل الآلهة عنا ، ويرحل الربيع .

الفتاة : أنا لم أرفض حلول الربيع ، فلتأت الآلهة ، ولتلتهم البقية الباقية من عمرى .

العجوز : فزعك أغضبها .

الفتاة بتحد : ربما معرفتي .

العجوز : لن يسمحوا لك بالعودة للقرية .

فغرت الفتاة فاها : هه .

أردفت باستغراب : يظنون ؟ أم أني كذلك ؟

العجوز : صمت .

همهمت الفتاة : شكراً لك .

ثم اتجهت صوب القربة تحملها : أتسمحين لى بهذه ؟

العجوز : ألن تذهبي لماء البحيرة ؟

الفتاة : البحيرة !

العجوز : أو إلى قرية مجاورة يمكنك الحياة بها .

عاد صوت الأجراس والأضواء عالياً ثم بدا خافتاً ، فبدت العجوز كأنها في صلاة : مازالت الآلهة تضل الطريق .

هرعت لها الفتاة : علهًا تختار قرابينها فى مناطق أخرى ، ياه ، منذ وقت طويل وأنا أطمع أن أحادثك ، والآن .

أدارت لها العجوز ظهرها وخرجت : وجب الرحيل .

مدت الفتاة يداً تفتح النافذة على مصراعيها رغم الرعد والبرق

: أشعر أنى أشم بساتين الرياحين ، أأدنو منها ؟ علّني أجد بالبحيرة

هارباً أو هاربة فى هذا الطقس فنستحم معاً ،أأدنو من منزلى ؟ ألم يشتق والداىَّ إلىَّ ؟ ألا يرغب أحد إخونى فى التنازل عن قرط واحد ؟ أتراهما سيظنانى لعنة ؟

ارتمت أرضاً : قرية أخرى ! أهرب ! لم ؟ ومم ؟

الذهب للبحيرة ، قارص الجو وعظامى مكسرة ؟ قرروا أن أرحل كأنما لابد أن أحيا قرباناً لا يهم أين ؟ أو كيف ؟ لتعود الآلهة ويعود الربيع كما يظنون وتعود الفراشات تنشر اليرقات ، والفتيات للمنازل الملونة تنتفخ بطونهن ، لابد من الرحيل ، علنى أجد الآلهة الضالة فتلتهمنى ، هكذا أحيا الربيع الدائم فى بطونها .. لكن لِمَ لم تأت ؟ أنا لم أعلن احتجاجاً أو رفضاً ، لقد أذعنت وشربت القرب والقوارير ، وهجرت عذب البحيرة..

يدخل العجوزان يحملان جوالان يقدمانه إليها ملتزمين الصمت :

همست : هذا لى

يستديران كأن لم يسمعا شيئاً ويخرجان ببطء بينما هى ترنم كلماتها الأخيرة .

: القرية ترفضنى .. الآلهة ضالة عنى .. البحيرة فى الشتاء جليد ، القرى الأخرى بعيدة ومهجورة ..

تكسر بعض القرب : وعظام الصغيرة تلعنى .. أقدارى أنى قربان ، شئت أم أبيت «تسرع باقى القرب للنافذة ، تهشمها بها» أنا هنا أيتها الهاربة .. أنا هنا قربان كى لا تعودى دائماً أبداً لن تعودى - فى هذه

اللحظة يبدو وجه السيدة العجوز من الخارج يغلق النافذة خشية هروب صوت الفتاة للخارج ، أما الرجل فيدخل يحمل الجوالين للخارج ويغلق الباب للأبد .

وصوت الفتاة دائماً أبداً لن تعودى دائماً أبداً لن تعودى أما الربيع فنعم وأما الحياة فنعم .

# الجدار

بعد ما يشبه الغفوة ، فوجئ كل منهما بالآخر أمامه ، محاولات البحث عن كائن ثالث في الكون ، كـانت محاولات فاشلة ، يده البـاحثة عن أى حقيقة أخرى لا تصطدم إلا بوجودها ، وكـذلك عيناها وذعرها وركضها وهربها ، فكل منـهما لا يصطدم إلا بالآخـر ، أو بالجدار فقـد كان أن نما كائناً عملاقاً ، أحاط بهما فى دائرة واسعة ، لكنها لا تحيط بغيرهما .

فى محاولاته التأقلم مع هذا الوضع الجديد ، كان يحاول أن لا يتلمس غيرها ليـقينه أنه لن يجد فى محـاولاتها الهرب واللا خضـوع للعملاق ، كانت تمامـاً ودائماً تخبط الرأس بـالجدار لتسـقط ، تترنح فريسـة للجدار وله، من ثقب صغير بالجدار - صعب واسـتحال أن يتسـع - كان يمر أمامى شعاع ضـئيل يجعلنى أدخل عالمهما ، أرقـبه ، أحبها وأحاول مـعها وأدق بشدة على الجـدار الخارجى حيث أنا ، فـلا تسمعنى ، فـأؤمن أن طرقاتى تضيع هباءً ، وعرفت أن هذا الجدار رغم كونه شفافاً فلا هو الذى يسمح لى أن أرى ، إلا من ثقب حدده هو بمساحة وزوايا لا يمكن التـحايل عليها مهـما حركت اتجاه رأسى يميناً أو شـمالاً . وحين استقـر بى الأمر ذات يوم

على أن أراهما سوياً ، وأجدنى قادرة بشكل أو بآخر على فهم تعبيراتهما- لا الاستماع إليهما بالطبع - فهذا ما لم يسمح به الكائن المارد المسمى بالجدار ، ذاك الذى سجنهما سوياً داخله ، وسجننى وحيدة خارجه . عندما حدث هذا ، تشبثت به ، وأصررت أن أدرك وأعرف كل ما يمكنه أن يحدث بينهما .

كانت حركاتهما المتلاحقة تتبعها أضواء تخفت وتشتد ، لم أبال بمصدرها ، فقد كان همى ألا أفقد الشخصين ، ها هو يلاحقها ، تقترب منه ، تستند إلى الجدار ، يجذبها من ذراعها ثم يردها إلى حيث كانت تستند إلى الجدار ، صاح بها :

إنك تحكمين على البشرية بالفناء .

أشاحت بوجهها : وأنت تسمح للحقائق بالفناء ، تسمح أن يموت الحق ويبقى الزيف ، أنت تبتغى للعالم أن يستمر ، لكنه استمرار أجوف .

قال وقد تركت يداه ذراعيها : أنا أواجه الحقيقة ، أتأقلم مع الواقع ، مع الرغبات فى وجداتى والواقع فى الجدران - تنظر للجدار بحزن وتتأوه -، وتجذب نفسها بعيداً حيث تسقط شبه مُسجاة على الأرض أما هو فيلهث خلفها .

دفعته عنها : أنا أحلم بما خلف الجدران ، هذا هو الواقع عندى .

يركض نحو الجدار يدق عليه بعنف : هذه الجدران هى الواقع الوحيد هنا - يعاود الدق - وهذا الصدى هو الصوت الذى يلعن الأشياء بالخارج ويحكم عليها رغم وجودها بالفناء .

يسير قافزاً ووجهه موجهاً نحو السماء بينما ترفرف يداه :

وهذا المحيط الواسع حولنا بلا خلل ، هذا المحيط الواسع حولك من لبنات لا أعلم من خلقها حولنا ، ولم أنا وأنت ؟ .. كل هذا المحيط يصيح لك أن الواقع هنا - يعلو صوته - أنك أنت واقعي ، وأنني واقعك.

يقترب منها محاولاً احتضانها والعبث بجسدها ، تصده وهي تصرخ :

- أما أنا أرفضك ، وأنت ترفضني .

ينهرها بقوله : لكن الجوع يجمعنا عند شجرة واحدة ، وشدة البرد كذلك تحت غطاء واحد .. والظمأ عند جدار واحد .. والجدار ..

أجابت بنبرة متخاذلة : لا لا تذكر الجدار في حديثك .

صاح : أنت تودين التحليق في الخيال ، إن الجدار هو الواقع الوحيد الذي ننتمي إليه .

قالت : وقد عاودها الإيمان بما خلف الجدار :

- لا ، صدقني .. صدق أن الواقع خلفه ، أنا لم أوجد هنا إلا منذ لحظات ، أما خلفه فهو واقعي ، حقاً أنا لا أحب الكذب ولا التحليق في خيالات زائفة ، لكنك تذكر كما أذكر أنا أن هناك عالماً آخر يفصلنا عنه مجرد سنتيمترات هي عرض الجدار ، وأن هذا العالم هو عالمنا الحقيقي ، وأن لي هناك أهلاً وحبيباً وعملاً ، وأنت كذلك، أليس كذلك ؟

قاطعها بقوله : وفُرض الجدار .

هى : مجرد سنتيمترات ! سوف نحاول ونحطمها .

هو : لن نجد أحداً صدقينى لن نجد أحداً ، لقد أصبح الجدار هو الواقع والحقيقة ، إنهم خلفه يتأقلمون مع لا وجودنا ونحن هنا لابد لنا من التأقلم مع وجودنا ، لسنا كياناً لاغياً خلفه ، إننا هنا آدم وحواء من جديد.

صاحت : لم يكن خلف حواء آدم آخر .

أجاب : هكذا أرادت الحياة ، آدم جديد خلفه حواء أخرى ، وحواء جديدة خلفها آدم آخر .

هى : أنت تحب الاختناق ، تستسلم له ، هذا الجدار ما هو إلا طبقة الأرض السميكة التى تُغطى البذرة ، وأنت ترغب فى الغوص أعمق أعماق التربة ، لن تصل لشئ ، سوف تختنق .

هو : وهل تعتقدين أنك أنت سوف تنبتين من الجدار ، إن ثمارك لن توجد إلا هنا ولن تنمو إلا هنا .

هى : إن ثماراً لا أرغبها لا أعبأ أن توجد أو ألآ توجد .

هو : ولكن الحياة تُقرر أن تستمر .

صاحت باعتراض : ليس على حسابى ، لن أخنق حياتى لتحيا الحياة .

هو : أنت بحلمك بما خلفها تخنقينها .

هى : بل أحياها ، أرى ولادتى ولو فى حلم .

هو : خيال ، هراء ، "يندفع إلي الجدار ويعاود الطرق" وهذا الصوت يعلن لك ألا حقيقة إلا هو فاستسلمى .

هى : أحب الحياة

هو : هنا الحياة

هى : في أحضان السور ! فى أعماق السجن ! !

أجاب : بل فى ذرات الواقع التى نتنسمها وتحيط بنا ، فى مناداة الأشياء لنا ومناداتنا إياها ... فى أحضانى أنا وفى أعماقى أنا .

أشاحت بوجهها بعيداً كأنما تهرب من ذكرى مؤلمة ، كتمت أنينها وهمست :

- اكرهنى .

همس : الواقع .

أردفت : أكرهه .

ناداها : لنخلق الحياة من جديد ، لم يكن خلف آدم حواء أخرى ولا خلف حواء آدم آخر ، وكذلك الآن فى أعماق الجدران ، ليس أمام كلاً منا إلا الآخر - عاود الدق على الجدران - هذا الصوت يصرخ لك أن ترتمى بين يدى ويصرخ لى أننى آدمك وأنك حوائى .

صاحت بثورة : أنا لم أخلق فى عصر الآدم الواحد لأجبرنى عليك ، لم أخلق فى عصر الفكرة الواحدة والرجل الواحد والحلال الواحد ، أنا فى زمن يسمح لى بالاختيار .

قال وقد بدا عليه نفاذ الصبر : والجدار ، الجدار أعادك حواء لآدم ، وصنع منى آدمك الوحيد .

هى : لكنى تنسمت رحيق حواء أخرى ، وآدم آخر ، أنا لم أجبرك على أكل تفاح الجنة ، أنا لم أنزع منك أنت .. أنا .. أنا "تتأوه" .

أمسك بكتفيها وهزها بعصبية بالغة : ملغاة ، هذه الأنا ملغاة ، رخيصة، إن الحياة تقرر الحياة ولو على حساب مشاعرى ومشاعرك ، والمبدأ يقرر أن يستمر ولو على حساب مبادئى ومبادئك ، حطمى الجدار سوف تجدين خلفه ألف جدار ، هنا الأنا ملغاة والجدار يفرض كل منا على الآخر ، والحياة تقرر أن تستمر شئنا أم أبينا ، وهى فى أعماقنا نتنفس بها ونعطش بها .. أرغبك بها .. أنفاس الحياة التى تفرض علينا كل شئ حتى رغبتى فيك وأنا لا أرغبك ، وضعفك أمامى وأنت ترفضيننى.

يشتد البرد وتهطل أمطار غزيرة :

دعاها : تعالى نلتحف باللحاف .. إنها تدعونا لنبرد .

هى : كنت أتمنى الالتحاف به .

هو : خلف الجدران وهم ، لن يدفئك الوهم .

هى : كنت أحبه فى كل شئ .

هو : رغم حبه إياك سوف يلتحف بسواك .

هى : إنه يشتد .

هو : نعم إنها الحياة تأمره أن يقرصنا . أخبرتك لا تعترضى ، إن أنفاسنا منها .

هى : كنت ... "ثم صمتت"

قال : وكذلك أنا

أردفت : نرفضها .

هو : تجبرنا .

هى : أرجوك ضمنى أكثر إن البرد شديد .

هو : والحاجة قارصة .

هى : إننى أرفضك ، آه ، إن البرد شديد .

هو : وكنت أقسم كل يوم ألا أضم سواها .

يشتد الرعد بصوته والبرق بضوئه ، ثم يسود الظلام ، مازالت الأمطار تهطل نظرت نحو الجدار وقالت : إن الجدار يخنقنى .

همس : يداك تحتميان بى .

أغمضت عينيها وقالت : أنت أيضاً تخنقنى .

هو : الرفض السائد ، هل ستعلنين لى مثل كل مرة إنها المرة الأخيرة؟

هى : وتسب نفسك مثل كل مرة أنك حنثت بعهد ما وراء الجدار .

هو : ثم أعود ، أعسود أطاردك وأطلبك وألهث خلفك لأنفث عن رغبات الجدار .

هى : تقبله فى ؟ تحتضنه فى ؟ تفعل وتفعل .

استمر فى التهامها : أنا لا أرغبك .

تلوت بين ذراعيه : احتضانك لى هذه المرة أشد .

أجاب ساخطاً : أنا لا أريدك .

انتهى منها ثم عاود فعلته ثانية .. همست : أنك تعيد الكرة كثيراً

سألها ساخراً : هل تودين أن أكف ؟

هي : أود أن أسألك هذا .

هو : وترغبين في الاستمرار ؟

هي : إنني أنفر، أكره ، لا أرغب

هو : وأنا لا أرغمك ، لا أجبرك ، إنك تستسلمين .

هي : إنني أكره .

هو : وكذلك أنا لا أحب .

هي : إنني لن أعود .

هو : نعم ومن منا يود أن يعود ؟

نعم ومن منا يود أن يعود ؟

يتردد صوتهما معاً بنفس العبارة قبل أن يعيدا الكرة "نعم ومن منا يود أن يعود !!؟"

نعم ومن منا يود أن يعود ؟

# لا أحد يحبك

لأنهما أحبا الناس .

طال بالشراع السير عبر البحار ، تأوهات الصغير لا تتوقف ، وعينا الأب ترقب التغيرات الطارئة عليه بحذر ، وخوف وكثير من الحب .

حين ارتطم القارب بحجر صخرى يعلن قرب الوصول لأرض ما ،

سقط الولد فى حجر الأب ، والتقت أنفاسهما لأول مرة منذ أعلنا الرحيل .

واجه الخوف للحظة ، إن السنوات التى عبر فيها كل هذه البحار بحثاً عن أرض تحتضنهما دون خوف علمته ألا يرهب شيئاً ، ألا يخاف أى شئ إلا أنفاس الصبى .

إنه يهرب من عالمه إلى عالم مجهول بأنفاس ولده ، لا هو القادر على التخلص منها ، ولا هو الدارى بكيفية التعامل معها .

ربتَ عليه مبعداً أنفاسه برفق ، شعر الصبى بما يدور فى نفس الرجل الذى اصطحبه كل هذه السنوات فتكور فى قبو صغير بجوف القارب ، وقد سد فمه بيديه ، أراد أن يستشعر طعم أنفاسه ، ولم الخوف منها ؟

عندما يحين المساء يقترب خلسة من أنفاس أبيه يستنشقها ، وهو شديد الحذر ألا يهب والده نفساً واحداً من أنفاسه ، ثم يتكور فى نفس القبو بجوف القارب يستشعر أنفاسه بعد أن ذاق أنفاس أبيه ، ويحاول إيجاد الفارق فلا يجد ، لكنه تعلم عبر السنين أن أباه معه لأنه يحبه ، وأنهما هاربان لأنهما أحيا الناس .

***

حين حفرت الأيادى القبور ، فقد قرر "الرجل القادم من الأزمنة البعيدة" دفن الصغير أو حرقه فداءً للجميع ، بكى أهل القرية ، وحفر كل منهم قبراً لنفسه معه .

حين حاول رجل الأزمنة الغريبة متمسحاً بأردية الدين التى ارتداها منذ وصوله القرية إقناع الناس بحرمانية أفعالهم كانت صيحات احتجاجهم أعلى من مواعظه ، كيف يُقتل لننجو ؟

علا صوته : إنها مشيئة الله ، ليس لنا الاعتراض ، لا يمكننا محاسبة الأقدار ، لكن ينبغى أن نتعامل معها" .

رفضوا كلماته ، وبدأ من أنهى حفر القبر منهم يهيل التراب على نفسه، منعهم صائحاً : أمامنا خيار .

: ما هو

القادم من الأزمنة الغريبة : أن يرسل الطفل من حيث أتيت أنا .

: يجوب البحار !

القادم : نعم ، العالم فى الجبهة الأخرى متطور جداً .

: أهو يهب الموتى الحياة ؟

القادم : ستصبح أنفاسه غير ما هى عليه .

تتقدم «إليزا» وهى سيدة فى منتصف العمر من الطفل ، تلمس وجنته ونهمس : أنها تزداد برودة .

تشجع رجل الأزمنة الغريبة واستمر : وهذا أخشى ما أخشاه ، إنه مفقود، لا يمكن أن يفقد الجميع معه ، لكن يمكنه أن ينجو لينجو معه الجميع ، ليذهب ، هناك قاربى ليحمله .

هرعت إليه السيدة : ويذهب وحده ؟!

تقدم الأب مربتاً على كتفيها : سأحمله أنا .

هى: وتتركانى ؟

قاطعها رجل الأزمنة الغريبة ، مفرقاً بيديه فيما بينهما : هذا عدا أن القارب لن ينجو بركاب ثلاثة ، أن أقصى حمولة له شخصان لا أكثر ، وحمداً لله أن الصبى صغير فهذا يسرع بإنجاز المهمة .

همست السيدة : أمن السهل العودة ؟

قال مشجعاً : نعم فالقارب مبرمج فقط للتنقل ما بين هاتين الأرضين لا ثالث لهما .

استل الأب نفسه مبتعداً عن ذراع رجل الأزمنة ، مصوباً نظره نحو قارب تتلاطمه الأمواج بالقرب من الشط .

أسرعت خلفه : وتتركنى ؟ إن القبور أرفق من الفراق .

أجاب وقد هرب بنظره بعيداً عن عينيها : لا يمكن أن نحكم عليهم جميعاً بالقبور من أجلنا .

هى : نذهب بدونهم

استدار لها : أنت تعرفينهم ، لن يدعونا ،قليل من الوقت ونعود .

ضمته إليها : أخاف الا ..

جذب وجهها ليقابل وجهه ، مداعباً بأصبعه شفتيها :

لا معنى هنا للخوف ، سأعود - ثم أكمل مداعباً إياها - فقط ربما تطرأ بعض التغيرات من فعل الزمن على لون شعرى . أو طول قامتى .

قاطعته مبتسمة : يقول أن الرحلة لا تطول .

ضمها بشدة محادثاً نفسه : بى شئ لا يطمئن إليه ، رغم أننا ما عهدنا الخوف ، أو ؟

: فيم تفكر ؟

: لا شئ ، لأول مرة سنعرف معنى الفراق ، قرأنا فى كتب الأزمان الغابرة أنه يشعل مشاعر الناس ويزيدها رهفاً .

: أكثر مما نحن فيه ؟!

قاطعهما رجل الأزمنة : هه ، ماذا تريان ؟

ربت الأب على كتفها ، ثم توجه للرجل محادثاً إياه بصوت عميق بدا وكأنه صادر من جوف المحيط : سأذهب .

رن الفرح فى صوت "رجل الأزمنة" الذى بدا متهللاً متعجلاً : الآن .

الآن ، الآن ، ترددت الأصوات من الجموع حولهـما ، تردد الكلمة كصدى لا متناهٍ لولا أن استدرج «رجل الأزمنة» وسط نفس النغمات .

: نعم ، إنه مريض ، وكلما مر الوقت كـان الخوف من انتشار العدوى اكبر .

تساءل الأب : وماذا سنحمل معنا .

بادره الرجل : وماذا حملت أنا ، وأنا قادم إليكم ؟ لا شئ مجرد هدايا لكم لا أكثر .

اتجه للجـموع مفسـراً : إنها بحار لا تعرف مـعنى الوقت ، لن يشيخ ، ولن يجوع ، ولن يعطش - استدار له - أفهمت ؟

كانت إليـزا تسرع الخطى حاملة الـطفل ، أما هو، فيـتأبط رجل الأزمنة ذراعه مهـرولاً به تجاه الشط ، حيث يقبع قارب مازال لا أحـد يعرف كنهه أو عنوان رحلتـه ، أهى رحلة المجهـول لطوق لنجـاة للجمـيع ، أم أنه بداية إعلان الوباء .

مازالت أصـوات الناس تغلف المحيط بنغم قلق ، مـترقـب ، يبـدو أنها أصوات مستسلمة لا تحبذ الرحيل ، وإن كانت ترجو النجاة .

ألن نعد لهما شيئاً ؟ ألن يحملا شيئاً ؟ .. ألابد من هذا ؟

همس ضمير إليزا يحادثها : إن لـم يعودا فالقبور تنتظر .

توقف الأب عن الـسـير مـستـلاً ذراعـه من ذراع الرجل وقاطع صـوته صوت ضميرها :

: لا ، إياكى .. سنعود ، أفهمت ؟

تاهت نظراته عنها نحـو الرجل الذى استحـثه أن يسرع وحادث نفـسه مغمضاً عينيه خشية خروج صوت ضميره إلى حيز غير حيزه .

: إلا أنى لا أعـرف لم لا يسكننى الارتيـاح لهـذا الرجل ؟ إنهـا بداية الأحاسيس الغريبة ، والمشاعر غير المعروفة !! .

***

مازال القـارب يواصل المشـوار ، ومازالت درجة حـرارة أنفاس الصـبى عند آخر مقـياس قاسته إليزا قـبل الرحيل .. ومازال حين يواصل النظر فى عيـون الصـبى يشعـر أن الزمان لم يمر ، وأن إحـساسـه بطول الزمن ، ولا غياب الشمس ولا ظهور القمر وهم من الأوهام .

يفرك الرأس وقـد نظر للخلف : «إنه محـال ، ليس له أن يعود الآن ، لابد أن يصل بالطفل للأمـان ، لابد أن توهـب له الحيـاة ليهب الحـياة لكل هؤلاء الذين حفروا القبور كى لا يرحل الصغير .

«وإليزا .. كيف أصبح الحال بهـا ؟ أيمر الزمان علينا دونها ؟ ومازالت هى كما تركناها لحظة الرحيل بالشط تنتظر ..»

هل تنتظر ؟

ما عـدت أفهم معنى الزمان فـى هذا القارب ، وما عدت أفـهم كيف أخشى أنفاس الصغير ، تلك التى أراد الجميع معانقتها والنزول بها إلى قاع القبور .

علّنى أخشاها خوفاً من الا أعود لإليزا الجميلة ، كم أفتقدك اللحظة يا إليزا !

ارتطام القارب بصخر أشد ضخامة أضاع من مخيلته صورة إليزا القابعة بجوار الشط تنتظر .

أما إليزا فكانت ما تزال تذهب لجمع البوص ، وكان الفتية بالطريق إذا ما رأوها ساعدوها بالسواعد القوية ، وعانقوها بالكلمات الرطبة والأمنيات الطيبة أن يعود الصغير سالماً بأبيه .

وحين يجتمع الجميع حول حلقة النار التى تدفئ المكان ، كان الرجل القادم من الأزمنة الغريبة يحاول بث معتنقات غريبة على أهل المكان ، أما هم فكانوا يتلفتون لبعضهم لا يفهمون ، ولم يسئ أحدهم الظن به فهم لا يسيئون الظن أبداً ، فاكتفوا باقتناعهم أنهم لا يفهمون ، وإن كلمات الغريب تعنى أشياء أخرى غير التى تصل إلى أذهانهم ، فإن طلب الطعام، أشار له الناس بالطعام ليتيقنوا أنه يقصد ما يؤكل لا ما يشرب ، وإذا ما أراد الغطاء لشعوره بالبرد عاجله أحدهم بسكب برميل من الماء على رأسه ، وآخر بتحريك سعفة جلباً للهواء ريثما يعد آخر النار للتدفئة فيختار الرجل مقصده من هذه الأشياء ، فقد احتار الناس فى فهم مراده ، وبمرور الوقت شعر سكان المكان أن للرجل لغة مخالفة فيما يعنى بالمشاعر والأفكار ، أما تسمية الأشياء فله ذات اللغة .

وفى بعض الحلقات ، حين تعاوده الجرأة فيكرر ما قاله سابقاً يتساءل أحدهم : كيف حدث هذا ؟ ولم يكن كذلك حين أتى إلينا .

ويتساءل آخر : أهى لوثة ؟

ويصبح للأمر وجهاً غير الذى كان عليه حين تردد الهمس :

أهو أمر مُعَنِد ؟

ويخشى رجل الأزمنة الغريبة ، ويعود بنظره إلى الوراء حيث القبور المحفورة .. ثم يطمئن نفسه .

: إنهم لن يدفنوننى وحدى ، سندفن جميعاً ، وهذا ما لن يحدث أبداً قبل أن يعودا .

وتقترب منه إليزا : متى يعودان ؟

ويسألها أن تذهب إلى كوخه مساءً فعليه استطلاع النجوم ، فتلبى وتذهب كى تسأله : متى يعودان ؟

يسترق النظر إلى ما لا تستره غلالتها الدقيقة ، إنه يشتهى هذا الجسد رغم لا حلاوته ، ولا يعرف لم كل هذه الرغبة فيها ، نظر إلى العينين الضيقتين الجميلتين ، وإلى الفم الدقيق ، والبشرة باهتة اللون ، ثم أخفض عينيه ثانية للجسد الممتلئ الذى يجعلها دائماً تتلكأ فى مسيرتها فتبدو كمن يكاد يسقط وبحاجة لمن يسانده .

: متى يعودان ؟

أرسل يديه نحو كتفيها : قريباً .

: متى ؟

: حين ...

: حين ماذا ؟

يدفعها بعيداً عن الباب ويخرج : سأذهب لأرى .

تتبعه حتى عتبة الكوخ ، وقد ملأت عيناها استفسارات عديدة ، بينما هو بالفناء يحملق فى السماء هرباً من الأفكار التى مازالت تئز فى أذنيه .

«إننى أريدها ، وأريدها هنا ، فى هذا المكان ، ليت الجميع يُقبرون وأبقى أنا وهى ..» .

تعثرت قدماها بعتبة الكوخ فكادت تسقط لولا أن فطن لهذا فلحق بها يسندها ، وامتدت يداه فى محاولة السند أيضاً إلى أجزاء ما كان ينبغى لها أن تمتد إليها ، فارتجفت هى وأجزاؤها معها ، وتراجعت بأدب شديد أتبعته بملحوظة تنم عن دهشتها من تصرفه ألقتها وهى تخشى أن تصيبه بحرج .

: نحن لا نفهم أحاديثك ، أما الآن فأنا لا أفهم أفعالك أيضاً .

ضمها بعمق : أفعالى أنا ؟!!

أصابها كثير من عدم الفهم ، وأرادت التخلص منه دون أن تسبب له حرجاً فصعد أصبعها إلى فمها بتلقائية الأطفال ، وخرجت كلماتها هادئة رتيبة : من فضلك .. اتركنى .

تخاذلت يداه وقد أصابته عدوى عدم الفهم : من فضلى ؟! إنه أنا من لا يفهم .

علت نبرة صوتها فارتجف: أرجوك.. أود فقط أن أعرف متى يعودان ؟

همس : وأنا أود أشياء كثيرة .

: اطلب نجيبك ، نحن لا نرد لك طلبًا ، أنت ضيف وغريب ورجل اختارنا مأوى . بلا شك نحن نحبك .

: نحن ؟ أم أنت ؟

: أم ماذا ؟ نحن هنا دائماً نحن ، نحيا نحن ، ونموت نحن ، لا يوجد أنا وأنت .

سألها بمكر : لكن مع الطفل ، مع والد الطفل .

أجابته بنفس البراءة التى لا تصطنعها : هذا أمر آخر .

: وأنا ؟

: لا يوجد أنا .

: ألا تفهمين ؟ أنا أرغبك .

أجابت كأنه أمر مفروغ منه : وأنا ايضاً ارغبك ..

ثم أردفت : كلنا نرغبك .

: هه .

: نعم نحن هنا كلنا يرغب بعضنا وكلنا نحب بعضا ، أتشك فى هذا ؟

أما وقد أدار الكلام فى رأسه على نحو آخر فقد عاد لأفعاله غير المفهومة بالنسبة لها : فـ .. هيا .

تراجعت قليلاً وقد انتابها الذعر لا من أفعاله ، بل أن يكون الأمر بالفعل لوثة تصيب بالعدوى .

تساءلت : هيا .. ماذا ؟

أجابها : الحب .

التقطت أنفاسها : أجل ، هذ ممكن ، ولهذا أتيتك .

هو : لهذا أتيتنى ؟

هى : نعم .

هو : من أجل الحب .

هى : بلى ، هو أجمل الأشياء ، ومن أجله وأجلهما أتيتك ، متى يعودا؟

هو : من هما ؟

لم تسمع عبارته فأردفت حالمة : المكان بدونهما كالوهم ، لقد لفظت الصخرة كل الأبناء من جوفها ، كلنا ولدنا فى يوم واحد ، مختلفى الأعمار حقاً ،عدا أن كلامنا يحتضن الآخر ، هكذا نشأنا ، لهذا لا يمكن أن يموت أي منا وحده .. أفهمتنى ؟ متى ؟

امتدت يده نحوها يريدها : متى ؟ أود أن أسألك متى ؟

نهضت مفزوعة : لا ، أرجوك .

عادت إلى الهبوط إليه وسألته بوجل : أنت لا تعرف ، لا يمكن ، كيف تسألنى متى ؟ لا ، إنه أنت وحدك من ينبغي أن يعرف متي يعودان.

قطب جبينه ، ونهض موجهاً بصره للسماء كمن يستقرئ الغيب ، ثم قال بلهجة مقتضبة

: سيعودان ، يكفى أن تعرفى هذا ، أنا أتيت من زمن ومكان وقانون مغاير ، وهما كذلك ، لا يمكن قياس زماننا بزمانكم ، لكن لابد أنهما عائدان ...

أما فى قرارة نفسه ، كان يُمنى النفس بما سيحدث إن لم يعودا .

***

ارتطام القارب بالصخر شرخ حائطه الأمامى .

صاح الطفل : لابد من ترميمه .

ضحك الأب : أخيراً نطق الطفل .. أوحشنى صوتك يا بام .

: أحبك يا ابى

: كل الناس تحبك يا بام .

كان الرجل ما يزال يجذب الحبال محاولاً ربط الحائط الأمامى ، سأل الطفل مغطياً أنفاسه :

: أهو شرخ عظيم ؟

: لا يا بام لكنى أرى عديداً من الصخور أمامنا . أظن أننا وصلنا .

: أهى أرض الرجل الغريب ؟

: نعم بلا شك

: أعجب كيف تركها !

: وأنا أيضاً يا بام ، إلا أننا لا يمكننا توجيه مثل هذا السؤال لضيف طلب المقام عندنا .

: ألا يحبها ؟

كان الرجل مازال محاولاً ربط المقدمة بالحبال ، صاح بصوت عال مقهقهاً : إنه سليم ، المياه لا تنفذ إليه ، قد ربطته احتياطياً .

استلقى مستنداً بظهره للحائط الأمامي للقارب بينما صعدت يداه تعبثان بمكان الشرخ ، حادث نفسه :

: وأنا أيضاً أعجب له ، كيف ترك أرضه ؟ ألا يحبها ؟ وكيف لا يحبها ويحبنا ؟ ولمَ يرسلنا لأرض تركها ، أو لم يحبها ؟

إنها المرة الأولى التي أسمع عن أشياء لا نحبها ونحتاج إليها ، ونحبها ثم نتركها ، مع هذا الرجل ما عدت أفهم الأشياء كان يحمل أشياء غريبة معه ، ظن أننا نسعد بها ، وعجب أن لم نسعد . أراد أن نصنع له منها ، وعلّمنا كيف نصنع صنعنا له ؟ ألم يكن واجبنا تجاه الضيف أن نصنع له ما يحب ؟

علا صوته مقراً بحقيقة الأمر : آه .. لكنه مع الأيام لم يعد ضيفاً .

الابن : بل مازال يا أبي ، وسيظل ، إن غريب الطباع دائماً ضيف .

الأب : طباعه ليست سيئة .

الابن : أعرف ، لكنها غريبة ، ما ساءني منه أنه أراد فرضها علينا .

أجاب الأب مذهولاً من تفكير ولده ، متسائلاً أهذا التفكير من تأثير الوباء على عقله ، أم تأثير الأجواء الغريبة التي يخترقاها :

: فعل ذلك لأنه يحبنا .

الابن بامتعاض : أنه لا يعرف كيف يحب ، نحن نحب أشياءنا ، يمكننا صنع أشياءه له أمالنا !!

قال الأب وقد تغلغلت أنفاسه روائح طعام ذلك الغريب :

: ما أسوأ ذلك الطعام الذى حمله إلينا .

الابن : وأعلننا انه أفضل الطعام هناك .

الأب : سنجبر على تناوله طوال فترة الإقامة هناك يا بام .

ارتطم القارب ثانية معلناً الوصول ، واقترن هذا الارتطام بقهقهات الأب الذى حمل ولده معانقاً إياه فى أول لقاء متعمد لأنفاسها منذ لحظة الرحيل .

: وصلنا يا ابى .

: نعم يا بام .

الابن وهو يشمشم أنفاس ابيه : حلوة أنفاسك يا أبى .

ضحك الأب معلقاً : ما اخشاك ، لكنى حريص أن نعود معاً لإليزا يا بام .

: نعم يا أبى

حين تعاودهما صورة رسمها القادم من العالم القابع بالطرف الآخر ، يشعران البهجة ، ويحثان السير .

تبدو أمامها ملامح أشياء غريبة ، وقسمات قوم تشبه قسماتهم تلك القسمات التى ودعتهم بالدموع والدعوات ، إلا أنها كالحة متعبة .

: هنا يا أبى .

: أظن هذا يا بام .

عاود الصغير شمشمته كجرو يبحث عن أمه ، فمد الأب إليه ذراعه

يرفعه إليه : عم تبحث يا بام ؟

تملص الطفل من ذراعى أبيه وقال : طعام الغريب يا أبى لا رائحة له هنا.

: ما أظن أننا ضللنا الطريق .

: ماذا يأكل الناس هنا ؟

: ربما ليس موعد الطعام فى بلادهم ، ثم ماذا يعنينا من هذا يا بام .. إتينا من أجل الدواء .

: رائحته تغلغلت أنفاسى قبل الوصول بقليل .

: أوه يا بام .

شدت أنظارهما القوى الخائرة تحاول استنهاض نفسها عبر ذات الوجوه وذات القسمات التى التقوا بها حال الوصول ، بعضها ملقى بالطرقات يقظاً ، والآخرون كالسائرين نياماً بحثاً عن مفقود ، وبين الحين والآخر يسمع صوت الباعة ينادون ، فيركض إليهم النائمون ليستيقظوا فجأة مستشعرين كثيراً من الغبطة لرنين الصوت المفقود ، وقدر عال من إحباط ليقظتهم التى أخرجتهم من وعيهم بباعة الطعام والفاكهة .

وحين تقدم الغريبان «بام ووالده» دخلا من حيث لم يعلما دائرة أحلام اليقظة ، الباعة تنادى والناس تهرول ، فيهرولون معهم بحثاً عن الطعام ، وعند الوصول لمصدر الصوت يستيقظ الجميع فلا يوجد أحد ، وحين فطن بام للعبة أصبح هو البائع الوحيد لأحلام اليقظة ، وحين فطن الأب لعبث ولده . استجداه أن يكف فقد حضرا من أجل الدواء لا اللهو .

: اللهو طعامهم .

: والدواء حياتنا يا بام .

«سارا بطرقات بعضها يضيق ، ويضيق معه حال أهله ، وبعضها يتسع لا يتسع الحال معه ، حين وجدا أول شجار فى هذه الأرض كانت نتيجته مقتل شخص ، وسقوط الاخر فى حفرة عميقة يستحيل الخروج منها ركض الأب إليها محاولاً فعل اى شئ لإنقاذه .

صاح الساقط بالحفرة : أرسلها لى ، لا تجعله يأخذها ، أرسلها لى .

كان دوى صوته هائلاً ، بينما بام يقرض بعض أوراق الشجر لا يعبأ.

الأب : كيف أخرجك ؟

الساقط : أرسلها لى ، إنها بيديه ، لقد قتلته ، لكنه لن يأخذها معه .

الأب : ما هى ؟ يداه فارغتان .

صاح وقد أصبح صوته مبحوحاً : طعامى ، عامى ، أمى ، «وانقطع الصوت» .

ارتعد بام وقد سقطت من بين يديه الأوراق : يقرضون الأشجار يا أبى وارتمى فى حضن والده .

فرك رأسه فى حضن والده رفضاً ثم جذب نظره شيئاً ما عن بعد :

: أبى أنظر هناك

كان الأب يدلك أنفه محاولاً طرد الرائحة الغريبة التى واتته خشية أن يعود للعبة أحلام اليقظة ، أما ما كان عن بعد وإن كان قريباً فجنازير

مجنزرة من الحديد حول أنواع الطعام المختلفة وكثير من حراس مدججون بما لم يفهم لا بام ولا والده مغزاه أو معناه .

كان أنصاف خائرى القوى يتقدمون ، وينقدون ثم يلعقون ويرحلون .

بام : ما هذا يا أبى ؟

الأب : لا أفهم يا بام .

بام : يبدو أن الأثمان هنا مختلفة يا بام ، فى بلدنا ثمن الطعام هو الجوع.. أما هنا فمازلنا لم نعرف الأثمان يا بام .

***

: اقرضى أظافرك .

: أعطنى بعضاً من أظافرك يا أمى .

جذب ولده بعيداً ، ثم ضم رأسه إلى صدره حاملاً إياه :

: لابد من الدواء .

رفع الصغير رأسه وهو يقرض أظافره فى رغبة على التعرف على نكهة هذا الطعام الجديد : الجوع يقرضهما يا أبى .

جذب الأب رأس الصغير ثانية مخفياً إياها فى صدره :

: لابد من الدواء يا بام قبل أن يقرضنا الجوع هنا .

حين تقدم من كهل عجوز استند إلى حائط مائل وفى يده بقية باقية من عكازه الذى تناثرت بعض أشلائه حول فم العجوز الخالى من الأسنان ، تشبثت يدا العجوز بقطعة الخشب الصغير، ودمعت عيناه وقد ملأه الرعب حين رآهما يتقدمان .

أدرك الأب ما يدور بمخيلة العجوز فبادره : الدواء يا شيخ ، لا حاجة بنا إلى الطعام .

قطعة الخشب المتبقية من العكاز ، كانت قد أفلتت من يد الشيخ متخذة طريقها بعيداً وذلك إثر سقوط الشيخ أرضاً أسفل الحائط المائل الذى أصبح حائطاً ساقطاً تلو انفجارات لم يعرف لا بام ولا والده مصدرها ، إلا أنهما ركضا مع الراكضين إلى حيث لا يدريان أين الذهاب، والتقط الأب ولده الذى سقط فجأة ثم ارتفع إلى أحضان أبيه مخفياً أنفاسه .

نزلت الجموع إلى مكان غريب لم يعرفا كنهه ، والتصقت الأجساد والأنفاس فى صمت لم يقطعه إلا صوت طفل صغير يبكى فى حضن أمه.. ، كانت يد بام الملتصقة بأنفاسه تتسلل رويداً رويداً تلكز الأم وتضع فى يديها بقايا عكاز الشيخ العجوز .

صمت الطفل وقد بدأ رضاعته عبر فم أمه الذى لم يقاوم الجوع ، فاقتسم العكاز مع الطفل فى قبله لم يفهم أحد مغزاها إلا بام ، أما الباقون فنظروا يعتصرهم الألم خشية أن يحين الوقت الذى يُهجر فيه قرض الأظافر ، وتقرض فيه الأفواه والشفاة .

تململت سيدة ، وقالت معبرة عن الفكرة الجماعية التى طرأت لهم :

: وبم نقرض لو قُرضت شفاهنا وأفواهنا ، وبالتالى أسناننا .

سخر شاب وقد ارتفع نظره للأم وابنها :

: ربما لو فعلنا هذا لانتهى الجوع ، نبدأ بالقرض من الفم حتى المعدة .

حين أنهى عبارته كانت يد "بام" الخافية أنفاسه قد لفتت أنظاره ، فقفز إليه جاذباً يده .

: ماذا معك تقرضه وحدك أيها اللعين ؟

أعاد بام يده مخفياً أنفاسه قائلاً : أنفاسى .

صمت أصوات الفرقعات ، أعاد الحال لما كان عليه ، وخرج الجميع من المخبأ ، لايشغل بام إلا أنفاسه .

: أنفاسى ، أخشى على الناس منها .

رحلة البحث عن الدواء شاقة ، فالعثور على الطعام فى مثل هذه الحالة أشد سهولة ، مجنزراً بالجنازير ، عليه حراس شداد ثم ينقد مقابل لعقة ، أما الدواء فلا .. لا أثر له .

همهمات المرضى خلف الحدود .

: وما الحدود ؟

: الأرض المجاورة .

: كم من الأراضى فى العالم .. كنا نظنها أرضاً واحدة .

أما بام نكان ما يزال يكتم أنفاسه : وأنا كنت أظن أن كل المرضى مريضاً واحداً .

يد الأب تتلمس ولده : أنفاسك تزداد برودة يا بام .

ابتسم له : أحبك يا أبى .

: أنا قلق من أجلك يا ولدى .

: لنرحل .. هناك يا بام خلف الحدود .

: ألم تسمعهم يا أبى ؟. مسدودة بأحجار متفجرة .

: معنا القارب يا بام .

تحت وابل من فرقعات وشرارات وويلات لم يستوعباها حتى اللحظة كان يجرجر ولده الذى تقطعت أنفاسه ، وبدت عباراته كهمهمات غير مفهومة .

: أتهرب .. لتموت معى يا أبى ؟

أما الأب فيعجب : كيف يصنعون الدواء ثم يقتل بعضهم بعضاً ؟

والطفل يتساءل : ترى.بم ستعود يا والد بام ؟ .. بالموت أم بزجاجات الدواء ؟

لملم طفله محتضناً إياه ، يرقبان الجموع المتهالكة تفر ثانية إلى المخبأ ، فقد تألق نهار الحرب في ذاك المساء متصلاً بضوء الفجر الذى لم يستشعراه ، وببزوغ أشعة الشمس كانت طوابير الناس تتساقط خارج باب المخبأ ، تشتعل حولهم ألسنة اللهب ، وأسرع من لملم بعض قواه يخمد الحرائق بالتراب ، أو يحمل إليها ماء البحر ، فإذا ما كان الإجهاد نصيبه من العمل شرب ماء البحر ، ثم أزال ملوحته بحلاوة التراب .

صوت والد بام يدوى : أما من حل ؟

أما الحقيقة فإنه أيضاً كان ما مستمع ، امتدت يده للتراب يقذفه فى وجوههم : وحين ينتهى التراب ماذا ستأكلون ؟

: أجيبونى .. كفوا عن الصمت .. لابد من حل .

صوت واهن قرر استنفاذ طاقاته الأخيرة ناصحاً إياه :

وفر طاقات غضبك .. ستحتاجها ليطول بك العمر يوماً واحداً . ، ثم تاوه تأوهات خافتة وألقى رأسه يميناً وأسلم الروح .

ذعر بام وأخفى وجهه بين يديه : أبى

الأب : مات .. مات .. أنهم يموتون هنا فرادى يا بام .

دبت الحركة حولهما ، الجميع يجذبون جثث الموتى ، ويلقون بها فى فجوة كبيرة بالأرض أحدثتها إحدى الانفجارات السابقة ، وبدأوا إلقاء الجثث الواحدة تلو الأخرى .

أجاب أحدهم على نظرات الأب المذهول :

سيشعلون بها النيران ، نحن هنا نحتاج التراب ، ثم لا طاقة بنا لحمله وإهالته عليهم .

بينما كانت رائحة الشواء تعبق المكان ، كان الجميع منكبون على التراب أو الصخور يستمدون الطاقات ، وبعض من كان أكثر حظاً تقع يداه على حشرة أو جرذ أنهكه الجوع ، أما العاملون بالدفن فيسيل عرقهم تعباً ولعابهم شوقاً ، فرائحة الشواء لم تكن تفرق كثيراً عن تلك التى عانقت أنوفهم آخر مرة حول موائد الطعام قبل اندلاع الحرب وفرض الحصار ، وحين يلعق أحدهم بساعده عرقه قد يلتقى بلعابه شيئاً من طعم هذا الشواء، وقد يعبر إلى عقله تساؤلاً عن الفارق بين هذا الشواء وما عداه .

تلك الفكرة «الفارق» بدأت صغيرة عبر لعق العرق ، ولعق الشواء ثم انتشرت وتغلغلت فى النفوس وارتضاها عمال القبور سراً ثم فاحت رائحتها دون اعتراض ، وبات الناس يجدون ما يدسونه فى التراب حين يأكلون .

كان الجوع أكبر من الخوف من الأمـراض ، أو فلنقل كانت أمراضاً غير مـعروفـة الشـأن أهون من أمـراض سوء التـغـذية وفقـد الطاقـات ، ورغم مخاوف غير معلنة من أن يؤدى الأمـر ، "التغذية" .. إلى "قلة الوفـيات" ، وبالتالى إلى حدوث المجاعة ثانية إذا لم تتوفر كمية الجثث المتاحة حالياً ، إلا أن الوفيـات كانت في ازدياد ، ولم يعد غـريباً وسط هذا الحصـار المفروض من أرض مـجاورة ، أن نجـد الأم تلقى بنفـسـهـا فى «بركـة النار» ، أو لنقل «قـدر النار» فقـد ابتلعت وهى تـتناول الغذاء خـاتماً كـان فى أصبع ابنتهـا فأدركت كنّه ما أكلت .

ولم يمنع هذا الناس أن يستـمروا حول ذات المائدة طلباً للحيـاة ، خاصة أن صخـور الأرض برزت بعد أن زال التراب من فرط مـا ابتلع منه ، وكان لها قـسوة ، وغلظة كـسرت أسنان من رقت قلوبهم لحـال الموتى ، وأبوا أن يطعموهم .

أما بام فكان قـد استلقى أسـفل أقدام أبيه يقـرض أظافره جوعـاً ، وقد امتـدت يدا الأب تعبث بشـعيرات رأسـه ، وسرح بخيـاله متـعجباً من أمر الأرض التي وطؤها وقـد حـرمـتـها الأرض المجـاورة من مـوارد الغـذاء ، وسـدت عليهـا الأنهـار والآبار ، وفجـرت مخـازن الطعـام والدواء فبـات المريض بمرض ليـمـوت ، والجائع يجـوع ليـصنع طعامـه من جـثث الموتى جوعاً أو مرضاً ..

: سنرحل يا بام .

: نعود لإليزا ؟

: كلا .. بل للأرض المجاورة.

: كلا ، أرض قساة القلوب ، لا ..

: لابد أن نرحل .. لا تنس أنك تحمل وباءً .. وأنا أخشى عليهم أن تحل بهم لعنة بسببنا .. لنرحل .

: كيف يا أبى وكل السبل مسدودة .

: لابد يا بام ، سنحاول ، هناك الدواء ، إن لنا أرضاً تنتظرنا نرعاها ونحبها ، لو تخاذلنا كرهناها ، لابد كي لا تدفن اليزا والآخرون يا بام ، أو لندفن معاً يا بام .. لا داع أن نصيب القوم بسوء أكثر مما قد حلَّ بهم .. إن أجدنا التجديف بسلام للأرض المجاورة ذهبنا وعدنا بالدواء ، وإن لم نُجد فلنعد لأرضنا يا بام .

كل السبل بدت مسدودة ، القارب حطام بفعل الانفجارات التى استمرت طيلة الليلة الماضية ، البحر الأسود اللون قاتم كمسافات ميتة لا أمل في قطعها ، إحساس الغربة الذى لم يملأ نفسيهما وهما قادمان خيم عليهما بشكل قاطع ، ولم يجد أياً منهما سبيلاً لإنهائه إلا إلصاق أنفاس أحدهما بالآخر يستنشقها .

مازال يحمل ولده عبر الأراضى الغريبة المحاصرة ، محاولاً إيجاد ثغرة للأرض المجاورة ، ومجرباً بإلقاء بعض الحجارة على المتاريس الفاصلة بين الأرضين فإذا هى تنفجر .

يحتضن الوباء فى أنفاس ولده دون أن يموت الأمل فى نفسه :

«إن لم ننج نحن يا بام .. فلتنج هذه الأرض المحاصرة» .

ابتعد عن الحـد الفاصل بين الأرضين ، وجذب ولده ثانية نحـو البحر ، كان الصغير متهالكاً ، لا يقوى على الحركـة ، وقد ازدادت أنفاسه برودة ، أما والده فخائر القـوى لا يقوى على حـمله فاستـعاض عن الأمـر بجذع خشبى يجذبه خلفه حامـلاً الطفل الذى هبط عنه حال وصولهما للشاطئ ، وانهمك الأب بنحت الجذع قارباً وحمل به ولده مجـدفاً رافعاً شراعاً كتب عليه :

«إنه الوباء ، فـقط نريد الدواء ، طفل فى العاشـرة مريض ، ليس عدواً ولا حبيباً .. فقط طفل مريض» .

وبينما هو يرسل طلباً للنجاة كانت قذائف الموت ترسل من كل جانب، واشتعلت الرسـالة فى الشراع ، أما الأب فقـفز ناجياً بولده ، ومـازال يبحر ويبحر حتى اقترب من الأرض المجاورة بأنفـاس محترقة ، وطفل أنهى عليه الوباء فمات .

ومـازال الأب ينتحب ، ويبكى ولا يـدرى كيف ومـاذا يفعل ؟ وعـانق أنفاسه مخلصاً فى العناق ، وعاوده صوت القادم من الأراضى الغربية :

"حى ، أو ميت لابد من دفنه أو حرقه حتى لا يصاب الجميع بالوباء».

أما التراب فكـان سخياً بالأرض المجاورة وكـان يمكنه حفر مثـوى أخير لولده الصغـير حامل الوباء ، وكانت قذائـف اللهب مازالت تسير مـشتعلة بالشراع ، فلو شاء لتخلص وخلص المكان حرقاً .

«أحبك يا أبى» كـاد ينطقهـا الطفل الميت وحيداً بينمـا والده يطفئ النار بجذع الشجر .

«كل الناس تحبك يا بام» مـرفوضة فى عقل الأب فى أرض يحرق فـيها الزرع ليموت الناس جوعاً ، ويمنع فيها الدواء ليحيا الناس مرضى ..

سنَّ من الصخـر سكيناً ونحت حروفـاً غريبـة على مداركـه على الجذع الذى ربط به ولده ، وحث السير حاملاً الجذع بطفله الميت نحو منبع الأنهار فى البلدة المجاورة ، وعـبر ماء النهر الذى سُـدَّ عن الأرض المحاصرة أرسل رسالة للبلدة المجـاورة «جذع شجر يحـمل الوباء عبر طفل مـيت ، ويحمل كلمات محفورة .

«أما أنت .. فلا أحد يحبك يا بام» .

الإمضاء

القادم إليكم من الأزمنة الغريبة .. الوباء .

# نزيف

فى ليلة من ليالى المدينة الحمراء ، عانت ذات المدينة من آلام نزيف دموى حاد حار معه العلماء والأطباء والفلكيون بل والدجالون وبسطاء الناس وكبارهم ، فلم يفلت شئ فى المدينة من معاناة هذا النزيف .

فقد تلون غمام السماء تدريجياً باللون الأحمر ، بينما اتخذت قطرات المطر والندى نفس لزوجة ومذاق الدم ، وسكبت المبانى التى تمُّ لونها الدم الغزير فى الطرقات فتحولت بدورها إلى بحار دم تم إعداد المصارف لتصريفها بعيداً عن المدينة خشية الغرق فى بحور الدم دون أدنى إصابة بجرح أو ألم .

وعندما حاول بعض أهل المدينة الهرب حاصرتهم الدماء وتبعتهم أينما ذهبوا مما دعا الحكومة لإقامة الحواجز والمتاريس حول المدينة المنكوبة لمنع أى شخص من الهرب من نزيف اتخذ صفة الوباء .

وبات الناس فى حيرة من أمرهم ، فهل يتعاملون مع الأمر على أنه من عاديات الحياة كتنفس الهواء ، ومضغ الطعام ، وشرب الشراب فيضاف إلى آليات الحياة إفراز الدماء تماماً كافراز العرق أو البول أو ما عداه ؟

وبينما الأمر يُعد سبب جدل في كل مكان على المستوى المحلى والعالمى وبينما كل بيت وكل مجلس يحاول معرفة السبب وإيجاد الحلول ، كان فى أقصى ركن من أركـان بحيرة الـدم الشمالية شخصـان يتشاجـران لأمر لا علاقة له بالمسألة ، وإن كان حديثهما لم يخل من عبارات لها دلالة بقع الدم الحمراء .

وبينمـا هى تطالبه بتحمل المسئولية وهو يعلن لهـا أنه لم يتخل عنـها قادتهم السبل الدموية إلى مركـز طبى لطبيب فى أقصى أركان المدينة عُرف عنه ما عرف ، وتهلل وجه الطبيب للزيارة ومد يده مصافحاً وهو يهمس :

أنا لا أحتاج النقود التى سيدفعـونها ، لكن جميل جداً أن تجد الطرقات ثانيـة طريقهـا إلى باب عيـادتى .. هذا يعنى أن الحيـاة ستعود كـما كـانت وسيتأقلم الناس مع الوضع الدموى الجديد .. وهذا ما أرجوه" .

تضرج وجـه الشابين بلون الدمـاء ، وإن كانت دمـاء تغلى تحت السطح ولم تصل لدرجة الفوران والغليان ، وباحا بسرهما واحـتياجهما فقط لمجرد قطرة أو قطرتين من دمـاء لحل مشكلة ليلة الزفاف ، أمـا الطبيب فـقد هاج وماج ، ولم يعـرف الشاب لمَ كل هذا الانفعـال فقد عُرِف عن الطبـيب ما عُرِف ، وهى معرفة يقين .

أومأ لها : عله يريد ثمناً أكبر !

تساءلت : ألن تعطيه ؟

أخفض رأسه : أقصد منك أنت .

انهمرت دموعها : هل تنتظر منى ذلك ؟

وارتفعت عيناها نحو الطبيب : هل تبخل علينا بقطرتين من كل هذه البحار ؟ سيدى : أنا لاأستطيع ما تطلب .

ضحك ساخراً : ومن قال أنى سأطلب .

سأل الشاب : ألست تريدها ؟ إنها مجرد سيدة تشبه كثيراً غيرها من السيدات ، سنحضر لك سيدة أخرى .

ارتفع صوت ضحكة الساخر: مرحباً بأى سيدة .. سأعطيك أجرك نقداً. أما نقاط الدم فلا .

توسل الشاب : سيدى !

الطبيب : لا أستطيع .. كم عانيتم لتصلوا إلى هنا ؟

أجاب الشاب : كثيراً يا سيدى ، إن المنطقة ببقعة نائية ، وهم يعملون بهمه لتصريف الدماء بوسط المدينة وما حولها .. أما فى المناطق النائية فقد تكونت كثيراً من البقع ، لقد كدنا نغرق أكثر من مرة بسبب انفجارات دموية عنيفة أسفل أقدامنا ، لكن لا علاقة للأمر بما جئنا من أجله ، إننا بالفعل نخشى الغرق فى كتل الدم وبحيراته ، لكن رغم هذا فلكى تستمر حياتنا نحن بحاجة إلى مجرد قطرتين .

اتجهت الفتاة ببصرها نحو الطبيب وقالت بصوت كاد يكون غير مسموع : سنعطيك ما ترغب أياً كان ما ترغب .

تجهم وأدار ظهره لهما ، واتجه نحو باب العيادة مشيراً لهما بالخروج .

: إن مهمتى منذ اللحظة ، أن انقص بقع وكتل الدم ، لا يمكن أن أزيدها قطرة واحدة .

: سيدى .

: لا

: مجرد قطرة .

: لا

: نصف قطرة .

أعلن الطبيب عن غضبه : لا أظنكما هنا لتمزحان .

صاحت به قبل أن يدفعهما خارجاً : أرجوك أنا لا أمزح فقط لون الدم لا داع للدم .

وبين هما يتحاوران ، ويتناقشان ، ثم يعودان يتشاجران ويفر حيناً ، وتلاحقه آخر ، ويبكى معلناً ذنبه فتهدهده أو تبكى معلنة لا قصدها ليطيب خاطرها ، وبين هما يبحثان كل الأفكار ، ويلعنان ذاك الحادث الدموى الذى أحاط بالمدينة مانعاً إتمام خطة هربهما خارجها إلى حيث لا أحد سيدرى بهما أو عنهما شيئاً ، كان بركن دموى آخر عائلتان - أحدهما تنتمى إليها الفتاة ، والأخرى لا تمت لأي منهما بصلة - تعدان الزينات وترتبان المواعيد مع الراقصات والمطربات ، وكل من له علاقة بإعلان الفرح، فقد كانت الليلة موعد زفافها إلى أحد الأقارب .

ولم تنج الأشياء من بقع دموية فثوب الزفاف الأبيض عاود نزيفه ، والخرفان التى تم شيها بكت أجزاؤها الدم ، أما الشربات فلم ينتظر من يُعده ، فقد امتلأت الأكواب ذاتياً بسائل أحمر اللون ، وحين عادت العروس تجر أذيال الخيبة ، وتلعن كل مشاعرها ونبضها وأحاسيسها

وكذلك خططها الماضية لمستقبل لم تتمكن لا هى ولا فتاها من التخطيط له، وبات عليها مواجهة الأمر بشكل أو بآخر فلا مجال ولا مكان للهرب ، وتمنت لو أن بعقل من سيكون زوجها رجاحة كرجاحة عقل الطبيب فيسعد حين يجد زوجته لا تزيد بحار الدم قطرة .

حين بدأت تعد ثيابها كانت أصوات الأغانى والزغاريد تُستبدل بشئ آخر ، كان المذياع قد أعلن عن أشياء والجرائد عن أشياء ، أما المدعو «دش» فقد جاءت قنواته مخالفة تماماً ، وتجمهر الناس أسفل الشرفة يحكون عما تناثر بالمدينة من أقوال ، وكيف أن الأمر لا يعدو فيروساً أصاب الأشياء بحالة عفن وعطب اختلف عن العطب والعفن المعروف بلونه الأحمر ولزوجته الدموية ، وجاءت أقوال أخرى تذكر أن هذا الفيروس قد خلُق خصيصاً وأرسل من الجبهة المعادية ليهدر موارد البلاد .

أما بنوك الدم فسعت لإثبات العكس ، وحاولت التحليل ، وقامت بالدراسة لتأكيد أن هذا النزيف ما هو إلا مورد جديد ينبغى استغلاله أحسن استغلال كما يُستغل البترول والغاز ، والفحم وما عدا هذا

وأُعلنت النتيجة فإذا بالدماء دماء صالحة لكل الأجناس ، إلا أن الأمر لم يحل مشكلة فقر الدم العالمى ونقص مصادره فما أن قدّم العلماء حاملين أوعيتهم وآلاتهم وأنابيب مد الدماء لتصديرها للخارج حتى اعتراهم نفس المرض ، وتساقطت الدماء من أفواه البعض أو أنوفهم .. إلى آخر أعضائهم، ومع إصرارهم على تحمل المسئولية والقيام بالأمر على أكفأ وجه امتد المرض إلى مواسير الدم التى لم تعد بحاجة إلى مدها بالدماء ، فقد اعتراها مرض النزيف ، وكلما امتدت المواسير سبقتها إلى نفس الطريق سيول الدماء .

وبين هذا العمل قائم على قدم وساق ظهرت جماعات طبية تحذر من الاستمرار وتتهم القائمين على هذا العمل بالرعونة والخيانة والتواطؤ مع قوى خارجية أو داخلية لتدمير المنطقة .

وخرج صوت أحد علماء مد الأنابيب معلناً أن هذا ما هو إلا تخريف ، فالعمل بالأنابيب ممتد للعالم بأسره ، وليس من الممكن أن يكون الهدف تدمير العالم ، وبين هذا وذاك كان المرضى والجرحى حيث مدت الأنابيب يتلقون الدماء بكميات غزيرة لتعويض نقص الدم الحادث بسبب المرض أو ما عداه فإذا بالدماء تفيض إلى حد لم يحدث من قبل ، وأصبحت أجساد الجرحى متشبعة بالدماء ، لا بمجرد ما يكفي للحياة ، بل بما يفيض ليشارك فى أسطورة النزيف نهاجت أجسادهم ، ونزفت مآقيهم وأفواههم ، واستطالت أظافرهم وشعورهم استطالات دموية ، هؤلاء من خف مصابهم، أما من احتد فقد تشقق جلده معلناً عن نزف لعين .

وما زال الفريقان فى خلافهم فالأطباء يحذرون ، ويعلنون ويذكرون أنهم طلبوا مراراً أن تتوقف عملية مد الأنابيب فأن يموت الناس ضحايا عدم وفرة الدماء أفضل من أن يظل العالم ينزف إلى ما لا نهاية .

وكتب كل كاتب مقالاً يعلن عن وجهة نظره فالبعض رأى أن الأمر «مد الدماء» يعني استمرار الحياة لكائنات من حقها الحياة بغض النظر عن قبح النزيف ، وآخرون هاجموا وطالبوا بشدة محاصرة الدماء حتى تنتهى الحياة بعد ستين عاماً أو سبعين ، أو حتى مائة ألف عام داخل المدينة الموبوءة فمن الصعب أن يُسمح للقبح الدموى أن يحتل العالم لمجرد أن تحيا مجموعة أفراد قوامها جرحى ومصابين .

لكن السؤال الذى فرض نفسه : ماذا سينجم عن هذا الحصار ؟

موت المدينة ؟ أم انتشار النزيف ؟

إن أحدهم ذهب معلناً للناس أن جده كان يحتضر بينما الجدران تمارس نزفها ، وحين أصيب الجد بالعدوى من الجدران انتابته رعشة أفاقته.

وهذا المواطن "الحفيد" يعلن بالتالى أنه ربما كان للدماء والنزيف فائدة مد الحياة : «نعم لقد تغيرت دماء جدى .. أنه الآن شخص آخر» . أما الجد فقد ظهر فى وسائل الإعلام يلعن قدره الذى مد فى عمره ليحيا مع الحفيد العاق ويصرح أنه نزف قبلها كثيراً حين ضربه ذات الحفيد ذات مرة وأخرى حين دفعه على درجات السلم وأخرى حين ..

عندها صاح الحفيد مدافعاً : ألم أعلن لكم أن جدى قد تبدلت دماؤه أنها روح أخرى تلك التى اجتاحته ، لم يعد جدى .

وترك العلماء أمر الجد والحفيد وأسرعوا لإحصاءاتهم ، كم مواطن توفى منذ حدث النزيف ؟ كم من هؤلاء الموتى عانى النزيف قبل أن يموت؟

المفاجأة أنه لا حالة وفاة واحدة بين من عانوا النزف ، إن كل الموتى منذ حدث النزيف ، لم يعان أى منهم إياه خلال حياته ، المفاجأة الأكثر هولاً أن بعض هؤلاء الموتى بعد دفنهم تحولوا إلى آبار طبيعية لدماء آدمية .

حاول رجال الدين الدلو بدلوهم :علّ الطبيعة ترفض الأخطاء والآثام . سأل أحد من لا يؤمنون بالأديان ساخراً : الطبيعة أم الله ؟

عندما نطق بها هاجمه النزيف فهلل الحاضرون : الله أكبر .. الله أكبر .

لكنهم لم يعرفوا هل هذا النزيف عقاب أم ثواب ؟ فقد تحدث رجل

دين على أنه هو - نفسه رجل الدين - ربما وجد نفسه فى حالة نزف عام ، ولا ينبغى أن يُظن أن كل من ينزف إنما هو مخطئ يعاقبه الله ، فالجدران تنزف والنوافذ تبكى ، حتى الأطفال لم تعد ترضع من أثداء أمهاتها إلا طعم الدم، لكن لا شك أن كل الأشياء ترفض ؛ ترفض الاستمرار فى خطأ ما ينبغى التوقف عنه .

هلل صبية لم يفقهوا من أمر الدنيا غير اللهو .

: فهل إن توقفنا عن آثامنا توقف النزيف ؟

صاح الشيخ : أنا لم أذكر أن المصائب لا تحل إلا كعقاب فقط ، ربما كان الأمر ابتلاء للمؤمنين من عباده .

هلل بعض النازفين : "الله . الله .."

كانوا قد كفوا عن مد المواسير ، وفُرض الحصار اللا نهائى على المدينة ، حتى خطوط الهاتف التى اجتاحها المرض أوقفت عن العمل وتم تدمير السنترال الرئيسى ، وغيره من خطوط التليفونات بالمدينة حتى لا تسول لأحد نفسه الاتصال بحبيب أو صديق أو قريب خارج حدود المدينة فتتسع دائرة النزف .

ولم يعد أمام المواطنين خارج المدينة سوى الظهور على شاشات التليفزيون أو إرسال نداءات التحية والمحبة عبر موجات الراديو إلى أهل المدينة المحاصرين ، أما المدنيون خارج المدينة فقد تمت محاصرتهم فى معسكرات عديدة لمحاولة تحليل دمائهم وأنسجتهم خوفاً من أن يكون فيروس النزيف قد اختبأ فى أحدهم ،وقد تكثفت البحوث والتحاليل

خاصة بعد نزيف لم يستغرق الدقائق الخمس حدث لأحد هؤلاء المدنيين إثر اصطدام رأسه بجسم صلب ، وعلى أن الأمر يجوز اعتباره من العاديات ، إلا أنه فى ظل ذاك الظرف كان ينبغي اتخاذ احتياطيات عالية جداً .

وفى ذات ليلة الزفاف ، وبين الزغاريد تعلو حين توقف ثوب العروس عن نزفه أملاً من أهل المدينة أن تتوقف كل الأشياء الأخرى عن هذا النزف، بين هذا وذاك تم تدمير آخر ما كان يربط المدينة بالعالم حولها فقد كفت قنوات التليفزيون وأجهزة الراديو عن إرسالها فلاذ الجميع بالصمت ، وتجمدت الزغاريد في الحلوق ، لقد قُطعت آخر حلقات الوصل ، وبدا مفهوماً أن هذه الموجات قد شاركت أو خيف من مشاركتها فى نقل العدوى .

همس أحدهم وكان صديقاً للعريس :

لقد قطعوا كل أمل .. قد توقف الثوب عن النزيف ، كيف نخبرهم ؟

علّ الأشياء تتبعه ، كيف نخبرهم حين يحدث مثل هذا ؟

تمتمت العروس التى امتدت تتحسس الثوب الذى بدأ يغتسل تلقائياً ويتضح لونه الناصع : ألن يمكننا بعد الآن الهروب ؟ .. عفواً أقصد الخروج من المدينة ؟

طفلة صغيرة ذات سنوات ثلاث بدأت نزفها منذ ساعات أعلنت عن دهشتها لتوقف الطبل والزمر فعاودته بأصابعها الصغيرة مذكرة الجميع أن الليلة ليلة عرس ، وعلى هذه الأنغام الصغيرة من طفلة جميلة قاد عروسه ،

وفى انتظار الأمـر خرج كلا منهـما قـبل أن تمر الدقيـقة الثالثـة - يعلنان أن النزيف قد أصاب كل أجزاء جسديهما مما لا ولن يجزم بالأمر .

# فوز العبيط

امتدت يداها بالزهور البيضاء ، وجريد النخل الأخضر تضعه على قبر الراحل . تُجفف الدموع التى تكاد تتساقط ، تنحنى تُقبل القبر ، تلعق ترابه ، حشرجات صدرها تمنعها من الاستمرار ، ترفع رأسها ، تحاول استنشاق الهواء لكنها لا تتمكن إلا من أن تعود لتحتضن القبر وتتنفس ذراته ، تُناجى الراحل الذى لاقى ربه منذ ساعات :

«أنا أيضاً تمنيت أن أرحل لكننى لم أحدد إلى أين الرحيل ؟ وتمنيت أن ألتقى لكننى لم أعرف بمن أود اللقاء ، لم تضع الأشياء منى فحسب ، بل تاهت الأمنيات فتبعثرت الخطوات ، وها أنا الآن بالطبع لست حطام إنسان، لكننى حلم لم يكتمل ورغبة لم يُتفوه بها ، تمنيت فقط مجرد أن أتذكر ما هى لا أن أحققها .

ضمت صدرها بيدها ، تلفتت حولها ، صوت السعال يفضحها ، مازال صوت الكرباج يدوى فى أذنيها : كفى ، كفى .

عروس فى ثياب الزفاف البيضاء ، الورود تتناثر هنا وهناك فلم تكن العروس فتاة عادية أنها "ابنة كبير البلد" .

كلمات التهانى تخنقها ، تشعر أنها كلمات تشمت فى سعادتها فى فرحها ، حتى المذياع لا يُعلن إلا عن كلمات الحب .. أروع كلمات الحب "فالليلة ليلة عرس" لم تتمكن من الجلوس طويلاً فلسعات الكرباج تجعل من الصعب عليها أن تسند ظهرها إلى مسند الكرسى المخصص لها ، ورائحة الدخان تأذن لصدرها أن يبدأ حشرجته المعهودة .

عويل وصراخ ، ثم ضحكات وقهقهة الشيخ العجوز :

ربنا ريحنا منه ، ده عبيط وأهبل .

سار الأطفال والشباب فى طرقات القرية يعلنون :

عبيط البلد مات يا ولاد ، عبيط البلد مات يا ولاد .

قرش من هنا وقرش من هناك .

أسرع الشيخ وهو ينحى الكرباج جانباً .

"لا ، ردوا على الخلق قروشهم ، آنى علىّ الكفن والغسل والدفن وكل مستلزمات الموضوع .. إيه ده عمل لله يا ولاد" .

الصيحات تتعالى من كل مكان : "فيك الخير يا حاج طول عمرك وأنت صاحب واجب" .

ابتسامة الرضا تعلو وجه الشيخ الشاحب ، يسرع إلى حجرته ، يلقى بالكرباج داخل أحد الأدراج ويحادث نفسه "عملتها فى وقتها يا ابن الـ .. بس لو كان بدرى شوية أهو عموماً خلاص الواحد يحط فى بطنه بطيخة صيفى دلوقت" .

: العروسة فين يا ولاد ؟ العروسة فين ؟

: أنى هنا من يا أما ، أنى هنا يا بنات .

لم تتمكن الأم من كتم سعادتها : العبيط مات يا فوز ، العبيط مات .

صوت الشيخ الكبير : "لا والله لازم يندفن الليلة ، قال : الصباح رباح قال" يميل على أذن أم العروسة :

: ده ابن جنّيه بدل ما نلاقى الروح دبت فيه من تانى .

: إيوه عندك حق يا حج عملت خير ، أهو ده الله كان ناقص العبيط كمان .

ثم تتجه بأنظارها إلى حيث العروسة : يللا يا فوز يللا قاعدة عندك ليه؟ قومى أقعدى فى كرسى العروسة مع البنات .

تُجيبها وهى تكتم الدموع فيبدو صوتها متحشرجاً متقطعاً :

: نار فى ظهرى يا أما ، الكرباج يا أما ، أكب على جسمى شوية مية ؟

الأم : يوه .. مية وأنت لابسة الفستان والطرحة .. لا يا فوز .. لا عيب.. يوه .

العروس : أنى مش هاخد وقت ، بسرعة والنبى يا أما . يعنى العريس يلقى ظهرى أحمر ومورم .

الأم : أيوه عندك حق يا بتى ، ربنا يتمم عليك عقلك يا فوز ، أيوه كدة لازم تشوفى صالح جوزك واللى يسعده ويفرحه .

انطلقت أم فوز تزغرد هنا وهناك ثم أسرعت إلى العروس قائلة :

إنى هسخن لك حبة مّية وأناديلك يا فوز ، خليك أنت دلوقت مع البنات .. غنى يا فوز ، يوه مش عيب يا بت .. ما هى عرايس الأيام بتغنى وترقص كمان .

صوته يصل إليها وهى تغتسل : بينادونى العبيط يا فوز .

فوز : تنقطع لسنتهم يا عبد الرحمن ، دول همه اللى عبط ، طب ده أنت أعقل واحد فى الدنيا ، داه أنت أبيض زى الحليب ما يهمكش منهم .

عبد الرحمن : آنى ما يهمنيش وأنتى معايا .. يا فوز ده أنت عروسة الجنة .

فوز : عروسة الجنة ! يعنى إيه يا عبد الرحمن .

عبد الرحمن : يعنى العروسة اللى بتمناها أكثر من الحور عين اللى فى الجنة ، بالك يا فوز آنى لو مت قبلك ما أشوفش ولا واحدة من الحور ، وأقعد أستناك وأقول يا رب عروستى .. عايز عروستى يا رحمن .

فوز : بعد الشر عليك يا عبد الرحمن .

عبد الرحمن : ده مش شر يا فوز .. ده لقا الحبيب ولقاك كمان .. عارفة يا فوز مش الدنيا ديه من خلق الله ؟

فوز : طبعاً .

عبد الرحمن : يعنى حد يستجرى يقول الله لا مش عاجبنى .

فوز : أستغفر الله بالطبع لا .

عبد الرحمن : أهم كل الناس اللى مانعينا من بعض دول ، بيقولوا لله لا مش عاجبنا .

فوز : والنبى صحيح يا عبد الرحمن .. يعنى ربنا راضى ، والناس بس هيه اللى مش عاجبها .

عبد الرحمن : يا بت الجواز عند ربنا شرطه القبول والرضا .. وعشان ربنا رايد جوازنا حط فى قلوبنا الرضا لكنه همه بأه مش عاجبهم .

فوز : هيجوزونى حد تانى يا عبد الرحمن .

عبد الرحمن : وأنت يا فوز راضية ؟

فوز : ده أنى أموت ولا يحصلشى .. مش طايقة يا عبد الرحمن .

عبد الرحمن : ما تخافيش يا فوز .. أنى بس اللى أنفع جوز .

فوز : والتانى يا عبد الرحمن ؟

عبد الرحمن : طالما عقد لا إنتى راضية بيه ولا قابلاه ما يصيرش جواز أبداً ، صحيح أهل البلد يشهدوا عليه ويباركوه لكنهم يباركوا فجر وسواد.

فوز : يا عبد الرحمن أديتى عقلك يا خويا ، هيجيبوا المأذون والعوالم ويعزموا كل أهالى البلاد اللى حوالينا .. وأنى اشتروا لى الفستان الأبيض .

يصيح واقفاً : هيبيعوك يا فوز .. هيبيعوك يا فوز .

تسرع خلفه وتجذبه : اسكت .. اسكت .. يا عبد الرحمن .

يهيم متمتماً : بأه عروسة الجنة يا ولاد تهون عليهم ، وبدل الحلال ياخدها راجل دفع فيها ، هتموت البراءة اللى فى عنيك يا فوز .. هياخدك غصب .

هيبقى فى البلد عندنا بدل "سنية الرقاصة" سنية تانى ، لا ده ميت سنية

ورا الباب ، أمال ليه بيعايبوا على سنية ويستعروا منها ، وهمه بيبيعوا بناتهم وإخواتهم ، طالما ما أنتش راضية مش جوزك يا فوز ، طالما مش راضية يبقوا بيعلموك طريق الفجر والعار يا فوز ، بيهونوا عليك جسمك ترميه لأى حد ولو كان بعقد مأذون .. منك لله يا بلد ..

فوز : اسكت .. اسكت يا عبد الرحمن .

يهز ذراعيها متسائلاً : حيلته إيه يا فوز ؟

لا تجيب فيردف : أبوه شيخ البلد جارينا ، يعنى لا هو لازم اللى يندفع يكون فلوس يا فوز .. أهو أينها حاجة غير الرضا والقبول يا فوز .

تأخذ فى البكاء : يا عبد الرحمن ما تقولشى عليه زى سنية .. وبعدين آنى خايفة عليك .

يهدأ نسبياً ويجلسها إلى جواره : ما تخافيش يا فوز .

يناولها الوشاح الذى يلتف به إذ عادت نوبات السعال تنتابها :

خدى يا فوز دفى نفسك .. متخرجيش فى البرد كدة تانى يا فوز .

ترد عليه الوشاح : يوه .. وأنت يا عبد الرحمن .. الجلابية خفيفة عليك خليه معاك .

عبد الرحمن : أنى هلم الحطب وأقيد النار تدفينا يا فوز .

فوز : تفضحنا ياعبد الرحمن .

عبد الرحمن : ليه يا فوز لا هو احنا بنغضب ربنا .. اللى يغضب ربنا بس هو اللى يفضح يا فوز .

صوت الأم : كنت فين يا فوز ده إحنا عجنا وخبزنا وأنت كل ده بره .. هو أنت كدة ما منكيش لزوم في البيت ده ، يللا يا أختي قومي امسحي المقاعد البرانية .. وأما تخلصي اكنسي الحصير الجواني يا بت .

: يا أما الصباح رباح .. النهاردة الجو برد وآني ما استحملش المية الساقعة بالليل كدة .. وبعدين ما أنت عارفة أن صدري تاعبني والتراب ريحته بتخنقني .

: يوه على دلع البنات ، ليه يا أختي ؟ ما أنت طول عمرك في التراب ولاكنتي جاية منين ! ولا تلاقي أبوكي كان باشا وأمك هانم ما أنتي مش فالحة لي غير في اللف والدوران ، ولا هو لازم الكرباج والشبشب يا بت الـ.. ما هي جتتك نحست ..

صوت الشيخ الكبير : أبوها أحسن من الباشا يا ست .. يللا يا بت بلاش دلع البنات الخيبان ده .. يوه هتكح وتعمل الشويتين بتوعها .. يللا يا أختي .. استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم .. الواحد ما كانش نطلع منه العيبة لغاية ما خلف ولاد الكلب دول .

تجفف جسدها .. السعال يعاودها فتحتضن صدرها بعنف وتبدأ في ارتداء ملابسها

: يللا يا فوز ، يللا .. يا بت ده أنتي عروسة عيب كدة .. ما أنت طول عمرك ما بتحبيش المية بالليل .. اشمعنى النهاردة ؟

ضمت الثوب إلى صدرها وأخذت تقبل كل أجزائه وتمرغ وجهها في أحضانه : كان نفسك يا عبد الرحمن .. كان نفسك .. إني عروسة طالعة .

انفجرت في البكاء وهي تحتضن الثوب .. اقتحمت أمها عليها الخلوة

: يا فضيحتك يا حاج .. تبكي .. بتبكي ليه ؟ يوه كتك نايبة البسى .. البسى .. أهو العبيط مات وشبع موت .. روحي انشالله تحصليه يا وش الفضايح .

تعاودها نوبات السعال اللعين لتغطى على حديث الأم .

: يا أختى يا رب تطلع روحك .

نهضت تعدل من نفسها وتحتضن صدرها ، شعرت أنه لا يوجد من يهتم بها وأن هذا الصدر الذى لاذ بها ليس له إلاها وحدها بعد رحيل عبد الرحمن ، فهي وحدها تشعر كّم اله واختناقه ، وأشفقت عليه وأحبته أكثر وضمت نفسها إليه .

: أنت فين يا عبد الرحمن ؟ هان عليك تسيبه يا عبد الرحمن ؟

أقدامها تسارع بها . تدفع حشود الناس أمامها .. بُهت الجميع ، تُسرع إلى الطرقات ، تجرى وتهرول ، إلى أين تهرب ؟ قد خلا مسكنه من الروح والحياة وبات رمزاً لها على الحب الذى كان ، ورمزاً لهم على .. ها هي تحتضن التراب الذى آواه ، لقد كان صدرها ووليدها وحبيبها ، لم تشعر أبداً بالألم لأنها مريضة أو لأنها تتألم لكنها شعرت بالألم من أجله وهو يحاول الحياة من أجلها لها وحدها .. سمعته يصيح : وهبك الله إياى من دون العالم لتحمينى لا لتخذلينى فعلمت أنها لا ينبغى أن تشعر أن هذا الصدر بلاءها ، بل أنها هي رحمته فباتت لا تتنازل عنه أبداً لا دفاعاً عن نفسها أو صدرها ، لكن دفاعاً عن هذا الشئ الذى احتمى بها .

أنفاسـها المختلطة بتـراب القبر تـخنقها لتـبعث فيـها الحيـاة من جديد ، حشرجات صدرها .. ما عـادت تقاوم لتنهض وارتمى خدها يحتضن حنان القبر ، وأنفها يعانق رحيق الموت .

# الشطرنج يفقد ملكه

"ما أسوأ ليل الشتـاء" ، نبست شفتاه بهذه الكلمـات بينما اتخذت يده طريقها باتجاه مؤشر المذيـاع الذى لم يذعن لليد القابضة عليه ، دفع به إلى الأرض :

" سحقاً لهذا المذياع ! سحقاً للخراب المحيط بكل شئ حولى !!"

رشف من الكأس رشـفتين ، لكنه شـعر أن اللذة الحـقيـقيـة تكمن فى سكبـه فراح يرقـب الخطوط التى أخـذت تبلل السجـادة المتهـالكة فى كل اتجاه.

قهقه بصوت عال ، ثم صمت فجأة كـأنما أخافه صوت القهقهة المفاجئ الذى صدر منه قاطعاً ذلك السكون الذى يعانق كل الأشياء حوله . تحدث بصوت عال قائلاً :

نعم بالطبع أذكرها ... كيف لا أذكرها ؟

عادت به ذاكرته إلى تلك الأيام عندما كـانت تسقط القطرات عفواً من الكأس ، كـانت لا تكف عن إبداء تأففـها ، بل فى أحـيان عديـدة كانت

تسارع بالسجادة بأكملها لتلقى بها بالبانيو ، عاد ثانية لقهقهته العالية :

".. كم كنت أنتهزها فرصة رغم ضجرى لأؤكد لها أنى مثلها احب العراء وأدعوها إلى دعوة مفتوحة لنعرى كل ما يحيط بنا لا مجرد الأرض بل حتى أنفسنا" .

ألقى بالكأس الفارغ بعيداً ، تنقل من هنا لهناك ، تمتد يده تارة إلى المذياع ثم يعود ليلعن "حتى أوراق اللعب غير كاملة" ... "لن أسمح لهؤلاء الصغار بالعبث بمحتويات الشقة ثانية ..

إن الشطرنج فقد ملكه" ، عاد يقهقه "ومع من عساى أن العب الآن..!؟"

تساءل : "أترانى أمنع الصغار من العبث بمحتويات الشقة ، أننى أبحث عن أى كائن ليعلن لى عن حياة الحياة بهذا المسكن الأخرس" .

ارتمى على أحد المقاعد ثم أخفى وجهه بين كفيه ليهرب من صورتها التى تلوح أمامه .

.."تباً لها هى الأخرى" .. "نعم بدونها أشعر بالبؤس ، لكنها كانت كالشطرنج بلا ملك ، هل كان ينبغى أن أستعيض عن القطع الضائعة بالأزرار الملونة ، أو أبدل عجوز الأوراق بتلك الصبية الحسناء ؟" .

ملأ الكأس وسكبه على السجادة : "تُرى من يعرينى ؟ وأُعرى من ؟"، ضحك بمرارة وتناول الزجاجة ، تدفق ما بجوف الزجاجة ليضع اللمسات الأخيرة ، ضم الزجاجة الفارغة إلى صدره .

: ترى من يعرينى ؟ وأُعرى من ؟

صاح : لكنها فقدت ملكها .

مال ينزع السجـادة عن الأرض : نعم شطرنج بلا ملك ، هى كذلك يا أرضى العـارية ، أي جـدوى منه إذا فـقد ملـكه ، إذا سقط عـرشـه ؟ أى جدوى منها وأى جدوى منه ؟

نهض متجهاً نحو المذياع الذى أبى الإذعان لمحاولات يده العنيفة ، فتح النافذة ، ألقى ببصره حيث الطريق الممتد : أين الصغار ؟

من يُحْيي الحياة بالمسكين الأخرس ؟ من يعرينى وأعرى من ؟

ارتمى أرضاً ، مازالت تلك التى غاب عنها عرشها تعبث بفكره .

امتدت يده إلى قطع الشطرنج المتناثرة ، وضع كل منهـا حيث ينبغى له على رقعـة اللعب ، امتـدت يده حيث كـان أحد أزرار ستـرتها يرقـبه من مخبأ له بين ثنايا السجادة المطوية ، وضعه حيث الملك همس قبل أن يصدر ضحكته الأخيرة .

"عاد الملك .. عاد الملك" .

# الإبريق

أسرعت تدفع باب المنزل الغارق فى الظلام ، مسحت بطرف ثوبها تلك اللوحة الرمادية التى طلى بها الغبار بالمشاركة مع قطرات المطر وجهها الأسمر النحيل .

ها هو ابنها يسألها السؤال اليومى :

هل أحضرت المصباح يا أمى ؟ لا يمكننى القراءة فى مثل هذا الجو أسفل أعمدة الإنارة ، إن الشتاء قد حل بنا.

دفعت الطفل بعيداً عنها ، وأسرعت إلى الحجرة الوحيدة بذلك المنزل المبنى من الطوب اللبن فى أقصى أطراف القرية وهى تتحسس طريقها فى الظلام ، امتدت يدها تعبث بمحتويات الحجرة الملقاة هنا وهناك بحثاً عن المرآه ، أمسكت علبة الثقاب ثم شهقت : "ما هذا إنه العود الأخير ؟" ، كيف حدث هذا ؟ كيف غاب عنها أن تشترى أعواد الثقاب ؟ إن ثمنها أهون بكثير من ثمن المصباح الذى يريده ابنها ، ذلك الصبى الذى أصابه هوس القراءة فما يكاد ينهى عمله بالحقول المجاورة حتى يسارع لالتقاط الشعاع الأخير من ضوء النهار وهو يحتضن القراطيس الفارغة وبعض

أوراق الجرائد الملقاة هنا وهناك ، ويجلس يلملم الحروف ويفض بكارة الكلمات لينسج منها بخياله عالماً آخر أوسع من عالم الحقل والقرية والمنزل الطينى الذى ترفض أمه أن تشترى له مصباحاً يحيل ظلامه الدامس إلى نور .

وصل إلى سمعها صوت صرير الباب ، فأسرعت تتخبط الطريق وقد احتضنت عود الثقاب الأخير بيديها : إلى أين تذهب ؟

لم تر يد ابنها القابضة على القرطاس الذى تشرب زيت أقراص الطعمية التى تناولاها بالأمس وهو يلوح لها . لكنها كانت تعلم أنه ذاهب إلى الطريق الرئيسى حيث يقبع أسفل أحد أعمدة الإنارة يقرأ الكلمات السابحة فى بقع الزيت .

صاحت : لا تتأخر .. لابد أن تستيقظ مبكراً حتى لا تطرد من عملك بالحقل .

امتدت يدها تبحث عن وابور الجاز ، جذبته إليها ،ها هو العود الأخير يحيل الظلام إلى نور ، أحضرت المرآه واقتربت بها من الضوء المنبعث من وابور الجاز ، عادت تمسح وجهها بطرف ثوبها وتُفرغ محتويات أنفها الذى أصابه البرد المفاجئ بطرف كمها الطويل ، امتدت يداها تدلك قدميها، على الدفء يسرى فى بدنها ، تنهدت وهى تنظر إلى القدمين المتشققتين اللتين اعتلاهما الطين ، بدأت تحكهما بظهر السكين فهى لم تعد قادرة على غسل وجهها أو قدميها بالماء البارد . جذبت الإبريق الذى طمس السواد لونه ، وملأته بالماء من الزير الذى كانت تستند برأسها إليه ، نثرت البقية الباقية من الشاى ، ووضعت الإبريق على الوابور .

حملقت فى صورة وجهها بالمرآه ، أرعبها صوت الرعد المفاجئ وصفير الريح التى تعصف بالقرية نهضت مفزوعة فقد أرعبها صوت ارتطام بالخارج ، أتراه جذع شجرة ؟ ارتفع بصرها إلى السقف المبنى من جذوع وجريد النخل وقد عاودها نفس القلق الذى يعاودها كلما حلَّ الشتاء لترى إلى متى يمكن لهذا السقف أن يقوم بحمايتها هى وابنها ؟ كلما عاد الشتاء وهبط السقف من مستواه وتردخت الجذوع التى يستند إليها ،كلما عاد الشتاء شئ ما يدفعها إلى تكرار النظر فى المرآه ، التجاعيد التى خطها الزمن على وجهها تتحدى فيها شيئاً ما .

انتفضت مرعوبة فقد خُيل إليها أن جذعاً قد سقط من السقف ، ألقت بالمرآه جانباً وقررت أن تنفض عنها هذا الخوف التى ملأها بلا مُقدمات ، مدت يدها إلى صدرها حيث تكمن صرة النقود فى أحضان الصدر الدافئ امتدت يدها تغوص حيث يكمن أحد نهديها .

همست : "حتى أنت بُليت بفعل الزمان ؟" .

ها هى النقود تؤنس وحدتها ، تحاول بها نزع الخوف عنها : "قرش .. قرشان .. عشرة .. عشرون .. ثلاثون .. حصاد العمر .. أربعون ، كيف يريد هذا المجنون الذى يقضى ليل الشتاء بالطرقات أن أنزع من هذا الحصاد لأشترى مصباحاً يفك على ضوئه رموز القراطيس ؟ حقاً قد سعدت عندما علمت أنه يمكنه القراءة والكتابة ، لكن ما النفع الذى عاد علينا من هذا ؟ إنه يهرب من الحقل ليقرأ ويريد أن ينفق المال ليضئ المنزل ليلاً ليقرأ . ثم أنه سخر منى عندما طلبت منه أن يقرأ لى الطالع . يطمئننى أن التجاعيد لن تملأ صفحة وجهى ، وأن رياح الشتاء لن تقذف بالسقف فوق رءوسنا . نعم تمنيت أن ينزع عنى خوف الشتاء .

ابتسمت وهى تنظر للضوء الباهت الصادر من وابور الجاز :

"إن عود ثقاب واحد كاف ليحيل الظلام المخيف إلى ضوء باهت جميل" .

أكملت العد : "خمسون . ستون . سبعون . هكذا تهدأ نفسى ، أنى أخاف الشتاء وأخاف ما يُحكي عن عفاريت الليل وأساطير القرية القديمة عن هؤلاء الذين يجوبون الأماكن الخالية عندما يحل المساء ، لكن هذا الضوء كاف ليهدئ روعى ، وما هى إلا دقائق وأستغرق فى النوم ، ثمانون ، تسعون . مائة .. مائة و ...

تطع أفكارها صوت غليان الشاى . أسرعت بيديها تحاول حمل الإبريق وقد قذفت بالنقود لكن الظلام التام حل ، فقد تدفق الشاى من الإبريق وأطفأ الشعلة التى كانت تضئ المكان .

ارتجفت خوفاً وبات صوت الرعد أقوى فى أذنيها مما كان عليه ، وخيل إليها كما لو كان صفير الريح يُعبر عن غناء الأشباح ، حاولت رؤية أى شئ ، "لا توجد أعواد ثقاب إضافية" ، كيف حال السقف فوق رأسى ، أتراه يقترب ؟ نعم . لا ، لا ، لا ، صاحت وهى تهرع نحو الباب : لا ، لا، أين أنت يا ولد ؟

أسرعت إلى الطريق الرئيسى حيث أعمدة الإنارة ، احتضنت ابنها وهمست : نعم سوف نشترى المصباح .

# الجميلة القادمة

وطأت قدماى أولى درجات السلم الهابط فى بطن الجبل ، كلما أشعلت الثقاب انطفأ ، الكشاف القديم الذى وجدته ملقى بمعبد الكرنك يفتقد إلى البطارية التى تبث به الضوء .

امتدت يدى تعبث بمحتويات الحقيبة ، ها هى الكاميرا اجتذبت منها البطارية ووضعتها بالكشاف فلا حاجة بى الآن إلى التقاط الصور .

الشعاع يفضح أمام عينى حياة شخص ما ، من ، ربما آلاف آلاف الأعوام .

إحساس بالرهبة يتملكنى .. هل أتراجع ؟ ليتنى أخبرت أى شخص عن مكانى ؟ كيف أحببت أن احتفظ بالأمر سراً ؟ إنه لايمكن أن يظل سراً أنها أميرة لابد أنها أميرة .

تحركت يداى بالكشاف تلغى الصمت المفروض على المكان ، وتنزع وشاح الظلام الذى غلف هذا الجمال .

: تابوت ، تابوت !!

أسرعت إليه والتساؤل تملؤه الرغبة أن يكون لأميرة ، لسيدة ، لا لرجل، لا أعرف ما سر الرغبة لكنها ملكتنى وأحسست أنها تنوى أن تملك أكثر ، نزعت الغطاء .

: مازالت كما هى ، سبحان الخلاق !

امتدت يدى تتحسس الوجه النائم .

: كيف للموت أن ينزع الروح عن هذا الجسد الجميل ؟

ها هى يدى تحيط بالرقبة ، تهبط ، تكاد تتغلغل إلى حيث يرقد النهدان ، أشعر بالخزى من نفسى ، أشعر أن العينين المغمضتين تعاتباننى أو تلومانى .. أو ربما تُعنفاننى .. أنهض أعتذر لسيدة المكان ، ثم أضحك واقترب من صاحبة الوجه الجميل ، أطبع قبلة على وجنتها :

: أتعلمين يا سيدة المكان أنك ربما كنت فى حقيقة الأمر إحدى جداتى القديمات .. «جدة صغيرة هكذا» ها ها ها . صدى صوت قهقهتى أصابنى بالرعب فاحتميت بالتابوت .

نهضت أتمنى أن أعرف ماذا أنوى أن أفعل ؟ جُلت بالمكان ، الكشاف يفضح ستره ، هل يمكننى ؟ كيف أجرؤ ؟

لا ، لابد أن أخبر رفقاء البعثة مهما كان ، نعم إن فى هذا حماية للجميلة .. أليس أفضل من أن أدعها للصوص الجبل والآثار ، إن القدر الذى قادنى إليها يمكنه أن يقود إليها غيرى من اللصوص ، لابد أن أحمى الجميلة ، لابد أن أحمى الجميلة .

أسرعت أتحسس الطريق نحو السلم وصدى الكلمات يرن فى أذنى ، لابد أن أحمى الجميلة .

وصلت إلى الفتحة العلوية ، تلك التى تدليت منها لأهبط فى بطن الجبل إلى حيث تقطن الروح ، روح ، ترى ما اسمها ؟ كيف فاتنى أن أقرأ الاسم ؟ جذبت الحبل لألفه حول جسدى ، صوت ينادينى ، ينادى ، نعم ، صوت رقيق منبعث من الداخل ، من باطن الجبل ينادى :

نفر .. نفر .. جميل .. جميل .

نعم أنا نفر ، عفواً أقصد اسمى جميل ، من ينادينى ؟ من يعبث بمشاعرى ويحاول بث الرعب فى أوصالى بهذه الترجمة الهيروغليفية لاسمى ، .. خيال .. وهم .. لا .. إنه يكرر النداء نفر .. نفر ..

صوت عالٍ ثم يخفت ، خافت ثم يعلو .. تركت الحبل ، سقط من يدى الكشاف ، أصبت بالرعب فقد حل الظلام .

يد تلمسنى ، تضغط على يدى ، تنهض بى ، تنفخ ، نعم أشعر بصوت النفخ ... إناء بللورى رائع يضئ المكان .. الضوء يجذب انتباهى فأرنو بنظرى إلى اليد السمراء التى تحمل الإناء ، الثوب الذى كان بالتابوت !! أقاوم الرعب وأرفع بصرى نحو .. "أنتِ .. أنتِ من كانت بالتابوت !

ابتسامة حزينة : أنا من ذكرت أنها جدتك .

: أنت رائعة للغاية ! هل يمكن أن تكون لى جدة فى مثل هذا الجمال والشباب ؟!

: بالطبع أنا لست جدتك ، لأنى لم أتزوج ولم أنجب .

: كيف أهمل الرجال سيدة فى مثل جمالك ؟

: دعك من هذا ، لماذا أتيت ؟ لماذا تنوى العبث بى ؟

: لا صدقينى .. أنا لم أقصد العبث .. لقد قبلت وجنتك إجلالاً لجمالك .. وحتى عندما كادت يدى أن تعبث بملابسك وربما أيضاً أن تعرى صدرك .. كان هذا لأن نداء الجمال أقوى منى .. صدقينى يا مليكتى لم يكن إلا إجابة لنداء الجمال رغبة فى التسبيح بحمد الله والاحاس بمدي إعجاز الله .. ثم أنا لم أنزع عنك أقراطك أو عقداً من عقودك ، أو سبيكة من سبائكك .

: أرجوك أنا لا أحتاج منك الكلام الكثير .

: فإلى ماذا تحتاج المليكة ؟

: دعنى فى وادى الصمت وحدى ، دعنى بلا أحد ، لا تقلق نومى لا تزعج موتى ، أرجوك أتركنى أبعث .. لا تعبث .. بأثاثى .. بحبات الفول والقمح التى أحتفظ بها .. إن كنت حقاً تحب المليكة .. إن كنت حقاً تقدر لسيدة المكان سيادتها على المكان .. لقد تركت لكم الشرق .. تركت لكم الحياة فاتركوا لى الموت .

: ستبعثين يا مليكة .. فى التو واللحظة .

: كيف ؟ لا أفهم !

: سوف أبعث بك إلى العالم . سوف أخرجك من قمقمك بالجبل .. أو أحضر كل الناس إليك .

: أرجوك لا أرغب .. دعنى أستمتع بالصمت بالوادى ، لا ترعب موتى .

: أنا لا أرغب فى إيذائك .. لقد أحببتك ، أنا أريد لك البعث .. دعينى أسألك أى المقابر لم تسرق ؟ أى المومياوات لم يعبث بها .. أتظنين أن كل هؤلاء الملوك الذين عبث بمومياواتهم لن يعودوا !

تقاطعه باعتراض : لا بل سيعودون .. أنا لا يمكننى أن أتخيل حقول الياورد بدون كل هؤلاء .

: وعقيدة أوزوريس ألا تكفيك ؟ ألا تقنعك ؟ ألم تكونى خيرة طيبة فى حياتك .. ألا يكفى هذا لإعادة بعثك دون عناء بناء المقبرة وتحنيط الجسد؟

: بلى ، ولكن لا يمكننى التنازل عن جسدى ، إنه ملكى حقى لا يمكننى أن أهبه لك أو لسواك ليعبث به ، إنك لم تجرب الموت لكن كلانا جرب الحياة ، وكلاً منا يمكنه أن يحكم على مدى قيمة جسده بالنسبة له فى الحياة أما أنا وحدى يمكننى أن أخبرك كيف تكون قيمته حين تنزع منه الروح ، صدقنى إنها أكبر ، إنه كالطفل العاجز الذى لا تملك له شيئاً سوى أن ترفرف بروحك حوله ، لن تشعر بما أشعر به إلا عندما تجدنى أخرب مقابر والدك ووالدتك .. أنبش فيها .

قاطعها : هناك فرق .

: لا فرق .

: أرجوكِ .

: أرجوك أنتَ

: إذن لا فائدة .

: دعنى أنام فى سلام .

: لك السلام يا مليكة .. لكنى لا أملك الأمر وحدى .

: كيف ؟

: أنا مجرد أجير ، أنا لا أملك الجبل ولا الأراضى ولا ماعدا هذا .. أنا فقط امتلكت الصدفة التى أودت بى إلى حيث مقبرتك الرائعة .. إن لم أخرج بك اليوم خرج بك غيرى بالغد .. وأخشى ما أخشاه ألا يكون هذا القادم التالى منا نحن الذين فُتنَّا بكم وأحببنا كل ما تعلق بكم .. أخشى أن يكون لصاً يبتغى المال ، يستبيح مقبرتك وتابوتك وحليك ، يغتصب البعث الذى تحلمين به ، يهرب خارج مصر .

صاحت بفزع : خارج مصر ، بعيداً عن النيل !

: أجل .

: أرجوك احمنى .

: ولهذا أود لك البعث على يدى هاتين .

: أُبعث .

: سوف يحميك رجالنا .. صدقينى سيحرسون المقبرة ويستضيفون تابوتك فى قاعات فخمة بالقرب من النيل .. قاعات كل سكانها من الفراعنة القدماء وكل روادها عشاق لهم .

: إنى خائفة ، أخشى أن تهيم روحى بالبرارى تبحث عن مأوى فلا تلتقى بالجسد أو التمثال .

قاطعها : أو الخرطوش .

: كيف علمت ؟

: ألم أخبرك أنا عاشق يا سيدتى ، أنا متعبد فى محراب أرباب العلم والفن والحضارة .

: لقد أشعرتنى ببعض الاطمئنان .. عاهدنى .

: أعاهدك .

: ألا تخون .

: لا لن أخون .

: البعث حلمى .. الخلود أملى .. لقد أفنيت كل ما لى لأعد مقبرتى. أرجوك لا تقبر أملى .

: مولاتى لها الحياة على يدى .. سأخلدك فى كل العيون وعلى مر العصور .

: أخشى يا نفر .

: مم تخاف المليكة ؟

: أخاف .. لا أعرف لم .. لكنى أشعره يكبر فى أعماقى .. لم أتيت؟ لم أقتحمت المكان ؟

: مولاى أحببتك .

: ما كنت تعرفنى .

: رحيقك أقوى من المعرفة .. أقوى من أن أدرك أن المقبرة لك أو لسواك .

: نفر

: مولاتى .. أعاهدك لك البعث على يدى .. لك البعث على يدى .

## (٢)

يتقدم نفر من قاعة واسعة بها أعداد كبيرة من التوابيت والتماثيل وغير هذا من المنقولات الأثرية ، يتفقد التوابيت باحثاً عن تابوت الأميرة يهمس منادياً :

: أميرتى .. مليكتى .

صوت مكتوم ينبعث من أحد التوابيت :

: نفر .. نفر .. هذا أنت .

: أجل مولاتى أين أنت ؟

: لم هذا الأسر يا نفر ؟ لم نحن هنا ؟

: مولاتى .

: سمعت همسهم .. سوف نبتعد ، سوف نرحل عن البلاد سوف ..

: مولاتى ستطوفين العالم .

: هنا العالم عندى لا أرغب سواه .

: مولاتى ستتوجين فى كل العيون وعلى ..

: لا .. لا أرغب ، لم تخون ؟ لم تقتل ؟ لم يمتنع قلبك عن الإيمان بجدك ؟ لم لا تنفذ العهد والوصية ؟

: مولاتي ! ..

: ستظل تناديني مولاتك .. إنك خائن يا نفر .

: لا صدقيني .. لا ..

: لا عهد لك حتى أصدقك

: سوف يزورك كل أهالي البلاد .

: فليأتوا حيث أنا .. لم ترحل بجثمان الجدة بعيداً عن مهدها ؟

: ليت الأمر بيدي يا مليكة .. لقد أحببتك .

: حبك يهتك أحلامي .. يهلك إيماني ..أنا أود البعث .

: تبعثين ولو ذبل جسدك وتلاشى.

: لكني أريد له البقاء .. أنا أؤمن ببقائه كما أؤمن بالبعث .. أريدهما معاً .. لم تنهشون أجساد الأموات .. لم ترثونا ضمن التركة ؟

: أحببناكم .

: لا .. لا أريد الحب الذي يرحل بي بعيداً عن أرضي ، أرجوك لا تدنس معتقداتي .. لن أبعث إلا من أرضي وفي أرضي .. بعيداً عن هنا ستذبل روحي وتهيم .. إنك تحكم علي بالموت الحقيقي ..

: لا .

: لا تقل لا .. نفر أنت قبيح وخائن .. أنا لم أحنط جسدي لترثه عني.. إن أردت سرقة أقراطي وثيابي فخذها .. أما روحي فإياك .. ابتعد عنها .. نفر لا تُملي علي اعتقاداتك .. لا ترغمني على أن أدين بدينك

وأؤمن بفكرك بعد أن غادرت روحى دنيا الفكر والدين .. لا ينبغى لجسدى أن يرحل عن أرضى أبداً ولو لسويعات قليلة .. لا تخرب جسدى وتوهمنى أنى سأبعث .. لا لن أبعث إلا لو ظل الجسد كما هو .. بل حتى لو بعثت لا أريد لجسدى أن يبلى لا أريد .. بعيداً عن أرضى لن أحيا أبداً.

يحاول مقاطعتها : مولاتى .. إننى

تستمر : لقد عملت ضمن من عملوا بدوله إندثرت فلم ترثوا عنا القوة أو الإيمان بالمعتقد .. أو الإيمان بنا .. ربما كان لك فكر تدين به لكننى أيضاً كان لى مثله ومازلت أنتظر أن أحاكم الآن وأنا أدين به .. لقد آمنت به بحب لذا فلابد أن يكون حق .. لقد أحببت العدالة يا نفر فوق ما تتخيل .

يصل إلى سمعهما صوت قادم من الخارج فيصيح بها نفر : مولاتى هيا إلى التابوت هناك . وقبل أن ينتهى من جملته كان أحد العمال يتساءل متقدماً من الباب : هل تم إعداد التوابيت للرحلة ؟

ثم يدخل العامل ملتفتاً إلى الأميرة التى كانت قد استلقت بالتابوت .

: سبحان من له الدوام !. لها كل هذا الحسن وما هى الآن إلا جسد محنط .

نفر وقد التفت للخلف : أهى بالتابوت ؟

العامل مقهقهاً : وأين يمكنها أن تذهب ؟

نفر محاولاً إخفاء ارتباكه : غداً تذهب إلى بلاد لم ترها من قبل-

مغمغا - ربما وهى لا تود الذهاب .

: ماذا ؟

وهو يحملق فى وجه الأميرة النائمة : هه لا شئ .

: أرى أنك شديد الإعجاب بها .

: أنها فاتنة بحق .

: إذا كنت معجب بها إلى هذا الحد فعليك أن تتملى فى وجهها قدر استطاعتك قبل أن ترحل .

: لن يطول غيابها .

: لن تعود بنفس الحال .. وإن عادت هناك شئ غريب يحدث .. أشعر أن هذه الجثث تفقد الحياة حال ذهابها وعودتها .. أو قل نشوة الرغبة فى الحياة ..

: هل أخبرتك بهذا ؟

: من ؟

: الأميرة ؟

: ماذا ؟ أى الأميرة ؟

نفر متداركاً نفسه : أقصد أميرة الأحلام ، لقد أخبرتنى بهذا بينما كنت نائماً ..

تهقه : ها ها .. لا .. لا أميرة ولا أحلام .. إنه إحساس ، ربما كان غير حقيقى .

## (٣)

يتسلل نفر إلـى القاعة التى تقبع فى الظلام ، يضئ نور خـافت ويتقدم من تابوت الأميرة وينادى .

: نفرت .. نفرت .. ربما أنت غـاضبة .. لقد حضـرت لأحملك حيث الجبل .. سأعد لك مقبرةخاصة .. نفرت . نفرت .

تمتد يدها تزيح الغطاء وتنهض : هل اسميتنى نفرت ؟

: ليصبح ما بيني وبينك شبه ولو في حروف اسمينا يا جميلة .

تكاد تفتح فمها فيمنعها من الحديث واضعاً يده على شفتيها :

: لا .. أرجوك .. لسـت مـستعداً لتلقى شئ من العتاب والملام .

: لكن .

: سأعود بك إلى الجبل .

: لكن .

: أرجـوك دعيـنى أكَفِّـر .. أنا لا أحـتـمل هذا الغـضب الذى يسكن عينيك.

: نفر سيعيدوننى .

: سأحفر لك مقبرة أخرى .

: نفر لا يمكن .. هذا مستحيل .

: لن يرحلوا بكِ .

: كيف ؟

صوت جلبه بالخارج فتصيح به : عادوا .. عادوا يا نفر .

: لن يرحلوا بك صدقينى .

: كيف ؟ تابوتى خاوٍ .. لابد أن أعود ، ماذا لو وجدوك هنا ؟ .
ارحل.. ارحل يا نفر .

: مولاتى !

: أرجوك إنهم يقتربون .. لابد أن أعود .

يجذبها من ذراعها : لا .. لا

: لو وجدوا التابوت خاوياً سيبحثون وسيجدوننى ويجدوك وربما ظنوا
أنك تنوى سرقتى .. اذهب .. اذهب .

يجذبها : تعالى .. تعالى أخبئك .. الباب الخلفى الذى حضرت منه لا
يزال مفتوحاً هيا ، هيا اهربى .

: نفر .

: أرجوكِ دعينى أكَفِر لن أُخرجك من الأرض التى أحببتيها طيلة
عمرك وحتى بعد موتك .. ليس من حقى أن أُكَفِرك بعقيدتك .

: نفر .

: لا تجادلى .. لابد لك من الرحيل .. نعم لابد لك أن تخلدى حيث
شئت وحيث اخترتِ .

تزداد الجلبة ، ويصدر عن الباب الكبير أصوات فتح مزاليجه فيجذبها

نفـر ويدفع بها خلف أحـد الأبواب الصـغيرة الجانبـية المؤدية إلى خـارج القاعة.

: هيا لا وقت

ينظر خلفه فـيجد تابوتها يـتصدر القاعـة وقد رفع عنه غطاءه : لا لو رأوا التابـوت دون غطائه سيـبحثـون ويَشكُون ويعـودون بكِ.. أرجوك .. اسبقيني .

يدفعهـا للخارج ويغلق الباب ثم يسـرع إلى التابوت ، فى ذلك الحين يفتح البـاب الكبير ويتـقدم عدد كـبير من الرجـال ، بينما يندفع ليتـمدد بالتابوت ويجذب غطاءه عليه ويهمس .

: أعرف أن صـوتى سـيصل إليك .. أعـذرينى لم أنقر لك مـقبـرتك لكنى وهبتك حريتك ، وحرية مماتك حيث ترغبين .. يمكنك بل إنى أعلم إنك قد تختارين النيل ليحتويك أو جذوع النخيل لترقدى أسفلها أو حتى مقابر الأحفاد تتسللين إليها .. اعذرينى لم أنقر لك ما يهبك الخلد ، لكنى أعلم أنك دائماً أبداً ستخلدين .

# الفهرس

# من قائمة الإصدارات الأدبية

## رواية .. قصة

| العنوان | المؤلف |
|---|---|
| ليلة العشق والدم | إبراهيم عبد المجيد |
| حمدان طليقاً | أحمد عمر شاهين |
| تاريخ الوقائع والجنون | إدوار الخراط |
| رقرقة الأحلام الملحية | إدوار الخراط |
| مخلوقات الأشواق الطائرة | إدوار الخراط |
| لا أحد يحبك | أماني فهمي |
| دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢) | جمال الغيطاني |
| مطربة العروب | جمال الغيطاني |
| دموع إبريس | حسني لبيب |
| أحزان رجل لا يعرف البكاء | خالد غازي |
| الحب والتتار | خالد عمر بن ققه |
| أبلم القرع في الجزائر | خالد عمر بن ققه |
| يومية هروب | خيري عبد الجواد |
| مسالك الأحبة | خيري عبد الجواد |
| العاشق والمعشوق | خيري عبد الجواد |
| حرب اطاليا | خيري عبد الجواد |
| حرب بلاد نعم | خيري عبد الجواد |
| حكايات الديب رماح | خيري عبد الجواد |
| الطريق والعاصفة | رأفت سليم |
| من لهيب الشمس | رأفت سليم |
| اركبوا نراحاتكم | رجب سعد السيد |
| أنا كنده | كيروجا ترجمة : رزق أحمد |
| سيرة عربة الجسر | سعد الدين حسن |
| شجرة الخلد | سعد القرش |
| شهقة | سعيد بكر |
| أبلم هند | سيد الوكيل |
| الممنوع من السفر | شوقي عبد الحميد |
| الدميرة | د.عبد الرحيم صديق |
| جسد من طل | عبد النبي فرج |
| الفوز للزمالك والنصر للأهلي | عبد اللطيف زيدان |
| ليس هناك ما يبهج | عبده خال |
| لا أحـــــد | عبده خال |
| صعيدي صُح | د. عزة عزت |
| الشاعر والحرامي | عزت الحريري |
| في انتظار ما لا يتوقع | عصام الزهيري |
| إينارو | د. علي فهمي خشيم |
| تحولات الجحش الذهبي | لوكيوس ابوليوس ترجمة د. علي فهمي خشيم |
| سراديب | عفاف السيد |
| الزجاج المكسور | د. غبريال وهبه |
| ينابيع الحزن والمسرة | فتحي سلامة |
| يوميات عابر سبيل | فيصل سليم التلاوي |
| وتر مشدود | قاسم مسعد عليوة |
| خبرات أنثوية | قاسم مسعد عليوة |
| حب وظلال | كوثر عبد الدايم |
| ترانزيت | ليلى الشربيني |
| مشوار | ليلى الشربيني |
| الرجل | ليلى الشربيني |
| رجال عرفتهم | ليلى الشربيني |
| الحلم | ليلى الشربيني |
| النغم | ليلى الشربيني |
| الخرابة 2000 | محمد الشرقاوي |
| كوميديا الإنسجام | محمد بركة |
| أشياء لا تموت | محمد صفوت |
| إلحاح | محمد عبد السلام العمري |
| بعد صلاة الجمعة | محمد عبد السلام العمري |
| الخروج إلى النبع | محمد قطب |
| رشفات من قهوتي الساخنة | محمد محي الدين |
| الحبيب المجنون | د. محمود دهموش |
| فندق بدون نجوم | د. محمود دهموش |
| الهروب مع الوطن | ممدوح القديري |
| نسيج الأسماء | منتصر القفاش |
| ثلاث حقائب للسفر | منى برنس |
| حافة الفردوس | نبيل عبد الحميد |
| ديسمبر الدافئ | هدى جاد |
| خلف النهاية بقليل | وحيد الطويلة |
| فرد حمام | يوسف فاخوري |

## شعر ..

| العنوان | المؤلف |
| --- | --- |
| أول الرؤيا | إبراهيم زولي |
| رويدا باتجاه الأرض | إبراهيم زولي |
| قصائد حب من العراق | البياتي وآخرون |
| بدلاً من الصمت | درويش الأسيوطي |
| من فصول الزمن الرديء | درويش الأسيوطي |
| تماماً إلى جوار جثة يونسكو | رشيد الغمري |
| كأنها نهاية الأرض | رفعت سلام |
| الألوان ترتعد بشراهة | شريف الشافعي |
| صلاة المودع | صبري السيد |
| سبـــا تناديـــا | طارق الزياد |
| تلف | ظبية خميس |
| البحر، النجوم، العشب في كف واحدة | ظبية خميس |
| كتاب الأمكنة والتواريخ | عبد العزيز موافي |
| حواديت لفندي | عصام خميس |
| سيرة الماء | د . علاء عبد الهادي |
| راتب الألفة | علوان مهدي الجيلاني |
| إضاءة في خيمة الليل | علي فريد |
| نصف حلم فقط | عماد عبد المحسن |
| عطر النغم الأخضر | عمر غراب |
| سراب القمر | فاروق خلف |
| إشارات ضبط المكان | فاروق خلف |
| أوراق مسافر | فيصل سليم التلاوي |
| إذهب قبل أن أبكي | د . لطيفة صالح |
| القرية والعشق | مجدي رياض |
| مشاعر مهجية | محسن عامر |
| غربة الصبح | محمد الفارس |
| وَنَس | محمد الحسيني |
| ليالي العنقاء | محمد محسن |
| العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر | نادر ناشد |
| هذه الروح لي | نادر ناشد |

## مسرح ..

| العنوان | المؤلف |
| --- | --- |
| هذه الليلة الطويلة | د.أحمد صدقي الدجاني |
| اللعبة الأبدية - (مسرحية شعرية) | محمد الفارس |
| مملكة القرود | محمود عبد الحافظ |

## دراسات ..

| العنوان | المؤلف |
| --- | --- |
| هاجس الكتابة | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| تحديات عصر جديد | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| حصاد الذاكرة | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية | أحمد الأحمدين |
| قراءة المعاني في بحر التحولات | أحمد عزت سليم |
| ضد هدم التاريخ وموت الكتابة | أحمد عزت سليم |
| اللغة والشكل | أمجد ريان |
| المثقفون العرب والتراث | جورج طرابيشي |
| ثقافة البادية | حاتم عبد الهادي |
| المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين | خليل إبراهيم حسونة |
| أدب الشباب في ليبيا | خليل إبراهيم حسونة |
| العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني | خليل إبراهيم حسونة |
| أباطيل الفرعونية | سليمان الحكيم |
| مصر الفرعونية | سليمان الحكيم |
| البعد الغائب، نظرات في القصة والرواية | سمير عبد الفتاح |
| رواد الأدب العربي في السعودية | شعيب عبد الفتاح |
| الكتابة المشروع | شوقي عبد الحميد |
| رحلة الكلمات | د . علي فهمي خشيم |
| بحثاً عن فرعون العربي | د . علي فهمي خشيم |
| أعلام من الأدب العالمي | علي عبد الفتاح |
| هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية | د . غبريال وهبة |
| زمن الرواية، صوت اللحظة الصاخبة | مجدي إبراهيم |
| في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع | محمد الطيب |
| الجات والتبعية الثقافية | د. مصطفى عبد الغني |
| أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل | ممدوح القديري |
| الرواية العربية، رسوم وقراءات | نبيل سليمان |

**بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .**
**خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.**



لأنهما أحب الناس .

طال بالشراع السير عبر البحار ، تأوهات الصغير لا تتوقف ، وعينا الأب ترقب التغيرات الطارئة عليه بحذر ، وخوف وكثير من الحب .

حين ارتطم القارب بحجر صخرى يعلن قرب الوصول لأرض ما .

سقط الولد فى حجر الأب ، والتقت أنفاسهما لأول مرة منذ أعلنا الرحيل .

واجه الخوف للحظة ، إن السنوات التى عبر فيها كل هذه البحار بحثاً عن أرض تحتضنهما دون خوف علمته ألا يرهب شيئاً ، ألا يخاف أى شئ إلا أنفاس الصبى .

إنه يهرب من عالمه إلى عالم مجهول بأنفاس ولده ، لا هو القادر على التخلص منها ، ولا هو الدارى بكيفية التعامل معها .

